محمد هويدي
عائشة الشيلابي
يارا الدرويش
رواية
أوتارٌ ممزّقة

أوتارٌ ممزّقةٌ

رواية مشتركة صادرة عن مشروع مداد للكُتّاب:

محمد هويدي

عاشة الشيلابي

يارا الدرويش

تنسيق وغلاف: دعاء الطيباني

الإهداء

إلى كلِّ روحٍ متعبة فقدت ضالتها بين أزقة الأيام، للذين يبحثون عن الحب والأمان والعائلة

وللذين سرقت منهم الحياة أعز أعزاءهم ...

وأخيرا إلى اولئك الذين يعيشون على فتات من أملٍ، وإلى كل من سيقرأنا داخل هذه السطور ليشعر بنا وبأحلامنا وآلامنا، وبحرارة دموع تنسابُ من مقلٍ مهترئةٍ تارةً، وبقرع طبولٍ داخل أجوافنا تنبأ بعودة موسم حب جديد .

يارا درويش

أدرك أن الأمور تنساب إلى الزوالِ بفطرتها، لكنّ شيء ما بداخلي أرادَ لها أن تتأخر قليلًا..

عائشة الشيلابي

الفصل الاول

١

١٣ كانون الثاني / يناير ٢٠٠٥
الساعة السابعة صباحاً

اشرقت الشمس موجهة سهامها الذهبية من النافذة الصغيرة، شكل انعكاس اشعتها على بلور النافذة كمية مضاعفة من ضوء الصباح الشديد، خاصة وأن ذلك الانعكاس يظهر بشكل مفاجئ وبلا مقدمات، ترافق ظهورها مع بعض الأصوات القادمة من الخارج، سيارات تمضي مسرعة مطلقة العنان لأبواقها المزعجة، واصوات السائقين الأكثر إزعاج، وبعض الباعة المتجولين الذين يملؤون المكان بصرخاتهم النشزة، لا مكان لزقزقة العصافير المعتادة صباحاً في هكذا مكان موبوء ..

_ كيف سيبدو الصباح بلا نوافذ، اليس من الأفضل إغلاقها بكمية مضاعفة من الإسمنت المسلح

فكر في ذلك وهو يطفئ جهاز المنبه وقد تساءل عن جدوى وجوده وسط كل هذه المنبهات الطبيعية، نسي ان يلغي تشغيله في الليلة السابقة، فاليوم عطلة رسمية

اسوء ما قد يحصل في يوم من ايام شهر يناير هو الاستيقاظ في هكذا توقيت، حيث يجبرك البرد على البقاء داخل اربعة اغطية سميكة، وانت تحرص اشد الحرص على عدم انكشاف أياً من اجزاء جسدك الى الخارج كي لا تتعرض لإحدى لسعات البرد القوية

حرك يده المرتجفة قليلاً وتلمسها بالأخرى، كان قد فقدها ليلة البارحة في إحدى كوابيسه المشؤومة، حيث كان يطارده كلب اسود اللون في طريق عودته الى المنزل بعد أن عاد من لقاء اخيه ايهم الذي انتظره اربعة عشر يوم، وقبل ان يصل الى باب المنزل استطاع الكلب ان يغز انيابه في يده اليسرى مهشماً لحمه وهو يصدر صوت نباح مرعب وانفاس اكثر رعباً، لم يدرك تماماً السبب الذي دفع ذلك الكلب لمهاجمته، ولكن أياً يكن، فقد تمكن من رؤية ايهم بعد اسبوعين من الغياب

وضع اصبعين على الموضع المهشم ليتأكد من أن ما جرى مجرد كابوس، كانت يده سليمة رغم انه احس بداية بآثار لعاب الكلب اللزجة

ازاح الأغطية من فوقه واحداً تلو الآخر ونجح في النهوض من سريره من المحاولة الأولى على غير المعتاد

كان يرى شخصاً يحمل بعض ملامحه يقف على مقربة منه، اراد ان يتأكد من ذلك فوضع كمية كبيرة من الماء بين كفيه

ورشها على المرآة الكبيرة واخذ يمسحها بمشفة قماشية وجدها معلقة على الجدار، بدت الصورة اكثر وضوحاً عندما اختفت البقع الصغيرة التي كانت تملئ المرآة

وجه شاحب اختفت بعض ملامحه مؤخراً، ولكنه لا يزال يحتفظ بقدر كاف من وسامته، يتوسطه شارب صغير يتصل بخط حاد مع لحية خفيفة، وعينان عسليتين واسعتان، انتشر السواد اسفلها، وخدان كبيران احدهما متورم بفعل تأثير قماش المخدة الخشن والآخر تتوسطه شامة صغيرة، وبعد ان غسل وجهه بالماء والصابون ظهر له وجه الشاب الذي كان يشابهه تماماً وقد استعاد القه مجدداً ولو لبضع دقائق

لم يكن يرغب بالنظر الى المرآة كثيراً كما كان يفعل في السابق، فهو لا يحتاج الى ذلك كما يقول، وقد يمر اسبوع على هذا الحال قبل ان تأتي صدفة ما كما حدث الان تجعله يقف امام وجهه ليتعرف على ملامحه مجدداً

اعاد المنشفة الى مكانها على الجدار بعد ان إنتهت مهمتها في تنشيف شعره ووجهه، كان لها رائحة تجعلك تفكر جدياً في التخلي عن استخدامها إلى الأبد، او حرقها في افضل الأحوال، ولكن البرد الشديد وعدم وجود منشفة بديلة هما سببين كافيين لطرد كل تلك الوساوس

بحث في كل ارجاء الغرفة عن اي اثر للطعام ولكنه لم يجد شيء، فقد عاد ليلة الأمس من عمله في وقت متأخر بناء على رغبة صاحب العمل الجشع الذي يعمل لديه، والذي لم يكن له هم سوى جني المال، وفي طريق عودته كانت المدينة تخلو من الحياة، وتغط في ظلام دامس نتيجة انقطاع التيار

الكهربائي، ولولا وجود بعض السيارات التي تسير بالقرب منه لفكر جدياً في ان المدينة قد هجرها اهلها الى غير عودة، وهكذا عاد الى منزله جائع ولم يحصل على فرصة لشراء شيء ما يسد رمقه

استلقى على سريره واضعاً قدميه تحت الأغطية الأربعة، بعد ان يأس من ايجاد شيء من طعام، القى نظرة حوله باحثاً عن علبة السجائر الصفراء لكي يعلن عن بدأ يومه بشكل رسمي، كانت الطاولة الصغيرة الملاصقة لسريره ممتلئة بالأشياء التي لا فائدة منها، علبة ماء فارغة، وكوب يحتوي على عدد من اوراق الشاي السوداء المحاطة بذرات السكر الذائبة، وما تبقى من الطاولة قد ملئ بكمية كبيرة من الادوية المهدئة الفارغة والممتلئة

وجد علبة السجائر ملقاة على الأرض اسفل الطاولة الى جانب ابريق الشاي، سحب نفساً عميقاً من سيجارته ذات الفلتر الأصفر نافثاً كمية كبيرة من الدخان، مضيفاً على جو الغرفة المغلقة بإحكام رائحة اخرى مختلفة عن رائحة الرطوبة، سرعان ما تشكلت بعض الدوائر الدخانية اعلى الغرفة، كان يراقبها كيف تظهر للحظات وتتلاشى وهي صاعدة نحو السقف .

كانت الافكار تراوده بين الحين والآخر، وتتلقفه امواج الكآبة والوحدة، لم يكن يرغب في التفكير في أي شيء مهما كان، في حين ان تلك الافكار لم تكن تظهر احترام لرغباته، بل تباغته محطمة كل الحواجز التي عانى كثيراً في ايجادها بينها وبينه، يفكر في شيء واحد، وهو إنهاء اليوم الذي

يعيشه في اسرع طريقة ممكنة، سمع ثلاث دقات من جهة الباب

_ هل انت هنا

نهض بتثاقل شديد واتجه نحو الباب، كانت هدى الصغيرة تقف خلف الباب وتحمل بيديها صحن يحتوي على فطائر الجبن الساخنة

_ كيف حالك يا هدى

كانت هدى ذات الأعوام التسعة ترتدي كنزة صفراء رسم عليها صورة كبيرة لميكي ماوس، وتضع قوس اعلى رأسها، وهي الوحيدة التي كانت تطرق ذلك الباب صباحاً لإيقاظه، حاملة معها شيء من صنع والدتها التي تتقن عمل الفطائر والحلويات، لم تجب كعادتها، بل توردت وجنتاها، وما أن اخذ الصحن من يديها حتى انطلقت مسرعة نحو المطبخ الذي تنبعث منه رائحة الفطائر المحمصة، فهي مصابة بداء الخجل الشديد، وفي الغالب، تجلب له الوجبات نتيجة إصرار والدتها

اغلق الباب وعاد الى داخل الغرفة من جديد، لم يستطع الانتظار حتى وصوله الى السرير فحمل قطعة من فطائر الجبن والتهمها بشراهة، احس بمذاق الجبن اللذيذ، يبدوا أن ريان استعملت جبناً اكثر ملوحة على غير المعتاد، وطبقة رقيقة من الخبز المحمص تتكسر بين اسنانه مصدرة اصوات قرمشة خفيفة، تناول القطعة الثانية ووضع الصحن فوق علب الأدوية وبعد مرور دقيقتين كان الصحن قد فرغ تماماً

مضى على استيقاظه ثلاث ساعات، قرر اخيراً الخروج من هذه الغرفة الكئيبة الى مكان اكثر كآبة اعتاد على ارتياده منذ ان وجد نفسه في هذا المنزل، ارتدى ملابسه بتأني شديد، بنطال اسود اللون وقميص مخطط، ومعطف رمادي كبير الحجم غير متناسب مع قوامه، يحتوي على شريط يحيط به من منتصفه وقبعة رأس كبيرة

خرج من المنزل دون أن يخبر أحد، وهذا ما كان يفعله في غالب الأحيان، كانت الأرض مبللة، وقد تشكلت الكثير من برك المياه والطين التي يصعب اجتيازها، وقد خلفتها ليلة شديدة المطر، كان يسر الى جانب الطريق، وهو يلتفت عندما يشعر بأن سيارة ما تقترب من الخلف، فقد تمنحك احدى السيارات المسرعة حماماً من مزيج الماء والطين بوجود هذه البرك الكبيرة، تابع مسيره نحو مقهى السعادة الذي اصبح على بعد بضع خطوات منه ..

٢

مقهى السعادة

رغم ان اسم المقهى يبعث على الطمأنينة، الا أن ذلك لا يشمل سوى اللوحة المعلقة فوق باب المدخل الصغير، وبمجرد دخولك اليها ستكتشف ان هذا المكان أبعد ما يكون عن السعادة، جلس على كرسيه الذي يتألف من مجموعة من قطع الحديد والخشب المجمعة بطريقة ما، خلع معطفه وعلقه على الكرسي الفارغ الى جانبه، ووضع جهاز الموبايل على الطاولة الحديدية، وكانت تضم زجاجة تحتوي على كمية كبيرة من السكر، كان رواد المقهى من كبار السن والمحطمين، تملئ وجوههم التجاعيد، يجتمعون هنا ليقرو الصحف ويشربون الشاي والقهوة ويتبادلون الاحاديث التي نسيها الناس، ويفضلون الصمت غالباً

بدا ان وجود شاب في مقتبل العمر بين كل هؤلاء العجزة امراً مستغرباً، إلا انه وجد ضالته في هذا المقهى، هادئ الى حد كبير وهذا ما يحتاجه، اما عن سنه فهو يؤكد أن الخراب الذي في داخله جعله يشيخ قبل أوانه، حاول أحمد وضع عدة فرضيات حول تسمية المقهى بهذا الاسم

_ من الممكن أن صاحب المقهى اختار هذا العنوان كنوع من الدعاية لجلب الزبائن، ومن الممكن انه أطلق عليه هذا

الاسم في يوم ما كان المقهى مغاير لشكله الحالي، عندما كان يرتاده أُناس غير محطمين ولازالوا على قيد الحياة

ولكن حتماً ان مقهى السعادة بعيد عن هذا المكان

_ طاب يومك سيد احمد

احضر له سامر صاحب المقهى كوب من القهوة الساخنة وعلبة مياه معدنية ومنفضة سجائر، وهذا كل ما سيحتاجه حتى عودته الى المنزل من جديد

كان الهواء اللطيف يدخل من جهة باب المقهى، حاملاً معه رائحة المطر ولسعات البرد الحادة، تذكر انه لم يلاحظ وجود الهواء في طريقه الى المقهى

_ على اي حال فإن وجود تلك النسمات مفيد في هكذا مكان، حيث انها تتكفل بتصفية الهواء المشبع بروائح السجائر والنراكيل

فكر في ذلك

كان يحاول استرجاع احداث اللقاء الذي جمعه مع أيهم ليلة البارحة، كان أيهم غاضب رغم انه حاول اخفاء ذلك

_ ماذا افعل يا اخي، لم يعد لدي الرغبة في ممارسة هذه الحياة، دعني وشأني

هذا ما استطاع ان يجيب به على استفسارات أيهم الكثيرة قبل أن ينتهي اللقاء، وعده أيهم بأنه سيعود لرؤيته مجدداً، عاد الى منزله ووجد ذلك الكلب اللعين بانتظاره

ومع مرور الوقت بدأت حدة الهواء تقوى شيء فشيئاً، مما اضطره الى ارتداء معطفه مجدداً وتغطية رأسه بقبعته الصوفية

كان يستمع غير مكترث الى الهمهمات من حوله، رجلان يجلسان بالقرب منه احدهما طاعن في السن وقد سبب له ذلك تغيراً واضحاً في صوته، كان يشتكي من ارتفاع اسعار الخضار واللحوم، وبأن المعاش الذي يتقاضاه لم يعد يكفي حتى لمنتصف الشهر، بينما كان الرجل الآخر يصغي الى شكواه بلامبالاة، وفي نهاية الحديث، اجابه :

_ لا تتعب نفسك في هكذا امور تافهة، فلم يتبقى لنا كثيراً من الوقت لنعيشه في هذه الحياة، ثم ماذا ستفعل بالخضار والمعاش بعدما تزوج جميع ابنائك وتوفيت زوجتك ولم يتبقى في المنزل سواك، ما عليك القيام به الأن هوا منح نفسك القليل من الهدوء والراحة بعد ان امضيت سبعون عاماً في هكذا سخافات ..

وعلى الطاولة الاخرى يجلس السيد عبد الرحمن صاحب الخمس وستون عاماً، والذي شغل منصباً كبيراً قبل عشر سنوات في احدى الشركات الخاصة، يتمتع بثقافة واسعة وذاكرة حديدية، ونظرات حادة، وكان في ما مضى يملك مكتب كبيراً يعج بالزائرين والمتملقين، وكثيراً ما كان يشتكي سكرتيره الخاص من ضغط العمل وهو يأجل مواعيد ويلغي اخرى، لم يستغرق الأمر سوى ثلاث سنوات بعد تقاعده حتى تلاشت شبكة العلاقات التي كانت تحيط به، ولم يتبقى له سوى زوجته المريضة وزوجة اخيه المتوفي، ومنذ ذلك

الحين التحق بهذا المقهى الذي وجد فيه كآبة مشابهة لتلك التي في داخله ...

استمع احمد الى قصته وقصص غالبية من كانوا يرتادون هذا المكان، عندما لاحظ رواد المقهى وجود شاب في مقتبل العمر، يجلس بينهم، اخذوا يتناوبون على الجلوس معه وقص القصص التي لا فائدة منها سوى تضييع الوقت، ومع مرور الأيام تأكد الجميع من أن ذلك الشاب الجميل يعاني من شيخوخة مبكرة، وروحاً متعبة مرهقة، واحلام محطمة، ويفضل الصمت والنظر الى الفراغ، كأي أحد منهم تماماً ...

٣

دمشق ... تلك المدينة الرائعة، والتي تغرقك في تفاصيلها حد الذوبان، و تسحرك بجمالها وبعراقتها، فهي تلامس كل قلب، وتشتاقها كل روح، وبالإضافة الى جمالها وسحرها فهي تمتلك شتاء متميز، حيث تختلط رائحة الأرض المبللة برائحة الياسمين المنتشر بين ازقتها وحواريها الضيقة ،الضاربة في التاريخ، ويتوارى قاسيون خلف الضباب المنتشر بفعل كميات الأمطار الكبيرة ..

اخفضت من سرعة السيارة عندما سمعت صوت جهاز الموبايل، حملته وشاهدت اسم والدتها الى الشاشة

_ ماريا، انا في المنزل، اين انتِ يا حبيبتي

_ امي، حاولت الاتصال بك اكثر من مرة ولكن هاتفك كان مشغول، فأرسلت لك رسالة اخبرك فيها بأني ذاهبة إلى منزل سلام

تلا ذلك لحظات قليلة من الصمت

_ نعم يا عزيزتي، سأكون بانتظارك، لا تتأخري كعادتك

اكدت لها بأنها لن تتأخر، وانها ستعود الى المنزل بعد ساعتين من الأن

اغلقت الهاتف وعادت الى شرودها، فكرت في صدقتها سلام، والتي لم ترها منذ ثلاثة ايام، الا انها لم تجد بداً من إقحامها في كذبة بيضاء لا تتجاوز ساعتين

كانت سيارتها تجتاز شوارع دمشق مسرعة دون وجهة، تظهر الشمس لدقائق قليلة وما تلبث ان تختبئ خلف الغيوم من جديد تاركة ورائها اثر انعكاس اشعتها الشديد على بلور السيارة

لاحظت بأن شارة المرور تشير الى اللون الأخضر الذي بدأ يظهر ويختفي، مما دعاها الى مضاعفة السرعة لكي تجتازها قبل ان تظهر الإشارة الحمراء، رغم ان ذلك لن يحدث فارق كبير بالنسبة لها فهي ليست على عجلة من امرها، ولكنها تكره الانتظار ...

ظهر شاب من بين الجموع، ينظر الى الأسفل ويسير بهدوء غير مكترث بشيء، ضغطت على بوق السيارة بشدة في محاولة منها لتنبيهه وإيقاظه من غفلته، إلا انه لم يبدي اي ردة فعل سوى المزيد من الهدوء واللامبالاة

لم تفلح المكابح التي ضغطت عليها بشدة في تفادي اصطدامها بذلك الشاب الغامض، صرخت برعب بعد ان رأت الشاب ملقى امام السيارة، تجمع الناس حول الشاب الذي كان وجهه غير واضح الملامح، نتيجة ارتطامه على الارض المبللة بالماء والطين، يأن انات غير متكاملة ويتمتم بكلمات غير مفهومة، ويشير بيده الى فخذه الأيسر حيث مكان إصابته، أما ماريا فقد كانت مرتبكة وتائهة، اقترب منها رجل كبير السن وتحدث اليها

_ لا عليك يا ابنتي فقد شاهدنا كيف حدث الأمر، يجب علينا إيصاله الى المستشفى بسرعة للاطمئنان على صحته

طمأنتها كلمات الرجل ولكنها لم تفلح في إخراجها من حالة الارتباك بشكل كامل، فتحت لهم باب السيارة الخلفي، حمله مجموعة من الشبان المتواجدين في المكان، وعندما حاول احدهم ثني قدمه ليستطيع ادخاله الى السيارة صرخ بشدة مما دعاهم الى تغيير وضعيته وادخال جسده اولاً

اسرعت الى تشغيل السيارة والانطلاق بسرعة كبيرة، لم تكن المستشفى تبعد كثيراً من مكان وقوع الحادث، حاولت الالتفات نحو الشاب فوجدته يمسك بمنطقة الإصابة، ولاحظت تغييراً بتعابير وجهه تنبأ بألم شديد يعاني منه، كانت تفكر في العواقب التي ستتعرض لها الان داخل المستشفى

_ سوف أدخل السجن

مجرد التفكير في ذلك اصابها بالرعب الشديد، في افضل الأحوال قد تحجز السيارة، فكرت في ذلك

وصلت الى المستشفى، كان المكان يعج بأناس يعانون من امراض مختلفة، ركضت نحو شابين يقفان بجانب الباب الرئيسي ويدخنون السجائر، لم يفهما شيء من حديثها وحاولا تهدئتها لكي تستطيع اخبارهم بما يجري، وعندما ادركت انها لن تستطيع ايضاح الأمر اشارت بإصبعها نحو السيارة، ركضا نحوها وحملا الشاب المصاب وادخلاه الى قسم الإسعاف، اغلقت باب السيارة وتبعت الشابين الى الداخل، لاحت لها فكرة بدت انها متأخرة

غيرت وجهتها وصعدت الى الطابق الثاني ...

تفاجئ الدكتور امين بماريا تتجاوز عدداً من الاشخاص وتدخل الى غرفة المعاينة

_ دكتور امين، ارجوك ساعدني

انتفض من مكانه وحاول تهدئتها الا انها لم تتجاوب معه، تأكد بأن هنالك شيء خطير قد حدث، فأضطر الى الاستجابة لها وغادر عيادته متتبع خطواتها، وعندما وصلت الى نهاية الممر حيث لا يتواجد احد اقتربت منه والذعر يملئ وجهها

_ دكتور، هو من القى نفسه امام السيارة، الجميع شاهد ذلك، الجميع شاهد ذلك

اخذت تبكي بشدة، طمأنها مهدأ من روعها وطلب منها ان تقص عليه ما جرى، مسحت دموعها وحاولت ان تتمالك نفسها، بدأت تروي له تفاصيل الحادث وهي تشهق من الحين الى الآخر

_ أين هو الشاب ؟

سأل الدكتور امين مستفسراً

_ اخذه الشابان الى قسم الإسعاف

اجابته ماريا وهي تشير نحو القسم في الأسفل

_ إطمئني يا ماريا، لا شيء يدعو للقلق، سوف تعودين الى منزلك الان

صمت وهو يفكر

_ انتظريني هنا قليلاً، سوف اعود بعد لحظات

كانت تراقبه وهو يدخل عيادته للحظات ويعود حاملاً معه مجموعة من الأوراق

_ اتبعيني

كانت تتبع خطواته وهو يتجه الى قسم الأشعة، حيث كان الشاب مستلقي على طاولة التصوير، وقد ثبتت العدسة على مكان الإصابة، اقترب الدكتور أمين من الرجل المسؤول عن قسم الأشعة وتحدث معه بصوت منخفض، استطاعت سماع بعض الكلمات التي تسللت الى اذنيها بصعوبة، تحدث الرجل

_ كلا، لا يوجد اسماء ولا ارقام

تساءل الدكتور

_ حسناً، أين الموبايل

اخرج الرجل جهاز الموبايل من جيبه واعطاه للدكتور

كان يضغط على ازرار الهاتف بحثاً عن اسم ما يدل على شخصية ذلك الشاب او رقم مخزن، وبعد معاناة، وجد رقم

واحد مكتوب الى جانبه " صاحب العمل "، ضغط الدكتور امين على زر الاتصال، اعقب ذلك بضع لحظات من الصمت

_ الو

_ مرحباً، انا الدكتور امين اود الاستفسار عن صاحب هذا الرقم فهو الأن في المستشفى، ولم نجد عنده بطاقة شخصية او اي شيء يدل على شخصيته

_ لا اعلم عمن تتحدث، ولا اعرف صاحب هذا الرقم

حرك الدكتور رأسه وزم شفتيه

_ هل انت متأكد

تساءل

_ قلت لك انني لا اعلم شيء عن ذلك الرجل

ثم اغلق الخط

نظر الدكتور الى الشاب المستلقي وإلى ماريا

سألت ماريا وقد احست بأن الامور تزداد سوء

_ ما الذي يجري يا دكتور

ابتسم لها الدكتور امين وطمئنها

_ لا تقلقي يا ماريا

واشار الموظف الذي يجلس خلف شاشة الكومبيوتر الى الرجل

_ ها هي الصورة

اتجه الرجل نحو الكومبيوتر وتبعه الدكتور، كان الدكتور امين يقرب رأسه من الشاشة ويبعده قليلً

_ يوجد كسر في عظم الفخذ

وقبل ان يتم كلماته دخل رجل من الشرطة الى داخل غرفة الإشعاع، نهض الدكتور من كرسيه ورحب برجل الامن بشدة، اشار له الدكتور بعينه بأنه يريد التحدث له على انفراد، وقبل ان يخرج امر شابان يعملان في قسم الأشعة بأن يذهبان بالمريض الى القسم الخاص بوضع الجبس، لم يمانع رجل الشرطة وتبعه الى الخارج

اخرج له مجموع من الأوراق واخذ يتكلم ويشير له بيده نحو ماريا، كان الشرطي يستمع الى الطبيب بإصغاء ويقلب في الصفحات، وضع الشرطي يده على كتف الطبيب واطلق تنهيدة طويلة وغادر المكان على الفور ....

استعاد الشاب وعيه، وكان الطبيب المختص بوضع الجبس قد انتهى من تضميد مكان الإصابة، حاول الدكتور الاستفسار عن اسمه

_ اسمي أحمد

نطق الشاب مع تغير واضح في صوته

_ بماذا تشعر يا أحمد

سأله الدكتور

_ صداع من هذه الجهة، والم شديد هنا

اشار الى الجهة الأمامية من رأسه مكان الصداع، والى فخذه مكان الإصابة

_ لا عليك يا أحمد، انت بخير ولا شيء يدعو للقلق

كان الشاب يعاني من لسعات الصداع التي تعاوده بين الحين والآخر، ويظهر ذلك عندما يغمض عينه اليسرى ويضع يده على رأسه من جهة الصداع

_ احتفظ بهذه الوصفة، كتبت لك بعض الأدوية والمسكنات التي ستعجل من ...

_ انا آسفة، انا من تسببت لك بذلك

قاطعت ماريا الطبيب بتلك الكلمات، نظر الشاب نحوها، كانت تبكي ويبدوا عليها الارتباك والخوف

_ هوني عليك، انا كنت شارداً بعض الشيء

ابتسم الدكتور وهو ينظر اليها

_ الحمد لله على سلامتك يا أحمد، أين تسكن

هز الشاب رأسه للطبيب

_ أسكن بالقرب من هنا

حاول النهوض إلى أن انحناءة قدمه الى الخلف حالت دون ذلك، لم يعتد بعد على الجبس الذي سوف يحد كثيراً من حركته خلال شهر من الزمن، تحدثت ماريا

_ سوف اوصلك بسيارتي إلى منزلك

_ شكراً لك يا آنسة، سوف أذهب بمفردي فمنزلي قريب .

وتحت إصرارها الشديد رضخ للأمر

٤

كانت ماريا تقود السيارة بتأني شديد، غير مكترثة بصرخات السائقين من خلفها وبأصوات ابواق مركباتهم التي تحثها على زيادة سرعتها، وإلى جانبها يجلس أحمد وقد ارتدى معطفه الرمادي مجدداً، لم تكن لديه رغبة في الكلام، وغير مكترث لماريا التي كانت تحاول أن تتحدث إليه بين الحين والآخر، بل اكتفى بالنظر إلى مكان إصابته ولمس الجبس الذي يغلف قدمه

- آسفة، لا أعلم ما جرى لي، فقدت تركيزي في لحظة شرود

القت ماريا تلك الكلمات في محاولة منها لكسر الصمت الذي سيطر على طريق عودتهم، ولكن محاولتها باءت بالفشل، فقد اكتفى بهز رأسه معبراً عن تفهمه لذلك

- كيف تجد نفسك الآن؟ أتشعر بألم ؟

حاولت مجدداً

- هنالك بعض الآلام الغير مزعجة، بالإضافة الى صداع خفيف، انني بخير، شكراً لكِ

شعرت بالارتياح بعض الشيء بعد أن سمعت منه تلك الكلمات، رغم انها كانت ترى بعض التعابير التي تشير الى أن جسد الرجل يعاني من وهن عام، أشار إلى آخر الشارع

- أنزليني هنا من فضلك، ها هو المنزل

تابعت ماريا طريقها نحو المنزل دون أن تعير كلامه أي اهتمام، لم يصدر منه اي ردة فعل بل اكتفى بإعداد العصاتان اللتين سيتكئ عليهما حتى شفائه .

توقفت السيارة عند باب المنزل الذي أشار له أحمد، فتحت ماريا الباب وتوجهت مسرعة إلى الطرف الآخر وفتحت الباب لأحمد الذي كان يحاول النهوض من مقعده مستنداً على يديها، وفي هذه الأثناء اشتدت الرياح المشبعة بقطرات المطر على نحو مفاجئ، تسبب له ذلك ببعض الارتباك في خطواته الأولى على قدميه الجديدتين ...

طرقت ماريا الباب ثلاث طرقات متتالية، وكانت اسنانها تصطك ببعضها من تأثير الهواء البارد، اكسبتها البرودة الشديدة انف احمر اللون بعد ان تركز الدم فيه، كان احمد يستند على كتفها وينظر الى الارض، وبعد لحظات قليلة فتحت هدى الصغيرة باب المنزل، كانت ترتدي قبعة من الصوف و تظهر جدائلها الذهبية من طرفيها

_ مرحباً يا عزيزتي ....

لم تنتظر هدى اكثر من ذلك، فرت إلى الداخل قبل ان تتم ماريا كلماتها، نظرت إلى أحمد مستغربة، إلا أنها تناست ذلك بعد أن لاحظت عليه علامات التعب والإرهاق

كان جو البيت هادئًا كأن لا حياة فيه، بيد أن بقايا رائحة الخبز المحمص كانت تفوح في الأجواء، منزل دمشقي على الطراز القديم، يتألف من طابقين تتوسطه نافورة ماء صغيرة ويحيط بها عدة غرف متناثرة هنا وهناك، وغابة من الأشجار والورود التي تتميز بها منازل دمشق القديمة

_ احمد، ما الذي حدث

ظهرت ريان، والدة ندى، وقد افزعها مشهد قدم احمد

_ لا داعي للقلق، حادث بسيط

اجاب أحمد باقتضاب

_ حادث، يا الهي، ما الذي جرى

صرخت ريان مجدداً

_ انا من تسبب بذلك، كنت اقود السيارة بسرعة وبدون تركيز

تدخلت ماريا معلنة مسؤوليتها عن الحادث

_ لا عليك، فأنا ايضاً اتحمل جزء من الحادث الذي حصل .

وضعت ريان يده على كتفها واخذت تساعده في الدخول الى غرفته، ولحقت بهم ماريا إلى الداخل

كانت ماريا تنظر باهتمام في ارجاء الغرفة، صورة عُلّقت على الجدار تظهر فيها ريان وهي صغيرة الى جانب فتاة تشابهها تماماً، وأحمد يحمل قبعة مدورة وإلى جواره شاب فارع الطول، ورجل وامراة يقفان في الخلف

_ أسرة مثالية

فكرت في ذلك

وعلى الجدار المقابل كانت صورٌة يظهر فيها المسجد الأموي، وقد التقطت منذ زمن قديم، لا يعرف الالوان

كان أحمد يراقبها وهي تجول بعينيها حول الجدران والصور، وبعد أن تفحصت كل شيء اقتربت منه عارضة خدماتها، خلعت عنه معطفه، تنبهت الى أمر هام اثناء تعليق المعطف على احد المسامير المثبتة إلى جانب السرير، امتدت يدها الى الجيب الأيمن الواسع واخرجت قطعة من الورق ووضعتها في حقيبتها الصغيرة، بينما تابعت عيناها جولة ثانية لتكتشف تفاصيل إضافية لم ترها في بداية الأمر

ملابس مرمية في كل مكان، وسرير قديم يحتوي على مجموعة من الأغطية، إلى جانبه طاولة صغيرة وضع في وسطها منفضة سجائر ممتلئة، يحيط بها عدد كبير من علب الأدوية المهدئة الفارغة والممتلئة، و خزانة ملابس مفتوحة فارغة إلا من حقيبة الجيتار

_ جيتار وسط كل هذه الفوضى

أسرت هذا التساؤل في نفسها

ومع دخول ريان المفاجئ إلى الغرفة نسيت أمر تلك الغرفة الغريبة لبعض اوكانت تحمل كأسين من الشاي الساخن

_ أخبرني ما الذي جرى يا أحمد

كانت ريان مرتبكة وهي توجه كلامها إلى أحمد وتنظر الى قدمه، بينما كان الاخير قد استلقى على سريره ومد قدمه المصابة حتى ترتاح بعض الشيء

_ لا تقلقي يا سيدتي، ذهبنا به إلى المستشفى، وبعد معاينة الصورة التي أُخذت لمكان الإصابة تبين بأن هنالك كسر بسيط في عضم الفخذ، وسيبقى على هذه الحالة شهر كامل، ومن ثم تعود قدمه إلى حالتها الطبيعية

أمسك أحمد بسيجارة ذات فلتر أصفر وأخذ ينفث منها كمية كبيرة من الدخان وهو يستمع الى حديث ماريا، مما اضطر ريان الى التوجه الى النافذة وفتحها قليلاً حتى يتبدل هواء الغرفة المشبع بالدخان

_ سوف اتكفل بكافة مصاريف العلاج، وأي شيء تحتاجه خلال هذا الشهر، فأنا من تسبب بهذه المشكلة

اخذت ماريا هاتف احمد وسجلت رقم هاتفها ووضعت اسمها اعلاه، وضغطت على زر الاتصال

_ هذا رقمي، يمكنك الاتصال بي متى شئت

امسك احمد بالموبايل ونظر الى الشاشة، عاود النظر إلى ماريا مجدداً

_ لا داعي لكل ذلك، انا بصحة جيدة ولا احتاج ل ....

قاطعته ماريا

_ اعلم ذلك، ولكن ارجو أن تتفهمني

حاولت ريان احتواء حدة ماريا مؤكدة لها بأن أحمد لن يمانع ذلك، ودعتها الى احتساء الشاي قبل أن يبرد

لاحظت ماريا وجود ضل فتاة صغيرة تقف خلف باب الغرفة الخشبي، وتبين لها من خلال الظل ايضاً وجود دمية

كبيرة بيد الطفلة، يقترب الظل من الباب ثم يعاود التراجع مسرعاً وكأنه يتعرض لصعقة كهربائية بمجرد اقترابه من عتبة الباب

_ ما هذا البيت الغريب ؟

أسرت في نفسها مرة اخرى

انتهت ماريا من كأس الشاي ونهضت من على كرسيها الحديدي مستأذنة بالانصراف

_ سوف أعود غداً للاطمئنان على صحتك يا أحمد .

حيته وانصرفت تتبعها ريان ونظراته التائهة

٥

أدارت مقود سيارتها الحديثة، متوجهة إلى المنزل، والإرهاق بادٍ على وجهها، خفضت صوت الراديو الذي كان يذيع إحدى اغنيات التراث الشعبي، لتقود السيارة بتركيزٍ أكبر، رغم علمها أنه بإمكانها التركيز و الاستماع لبعض الموسيقى، لكنها اكتسبت هذه العادة من والدها الذي توفي منذ خمس سنوات، حيث أن إخفاض صوت الراديو هو أول خطوة يقوم بها عند تشغيل السيارة ..

ركنت ماريا سيارتها بالمرآب الخاص بالسيارات، ودخلت من باب الفيلا الرئيسي حتى تتحاشى المرور بالقرب من غرفة والدتها لكي لا تراها على هذه الحالة

_ ماريا

باغتها صوت والدتها من جهة المطبخ، حيث كانت تقف مرتدية مريول وردي، وتحمل بيدها ملعقة خشبية كبيرة الحجم

_ ما هذا ؟ امي تعد الغداء ؟ هل ما اراه حقيقة ؟؟

حاولت ماريا مباغتتها، ضحكت والدتها ولكنها سرعان ما احست بأن شيء ما قد حدث لابنتها، إذ ان ماريا لا تجيد التمثيل بشكل جيد وخاصة عندما تكون الضحية والدتها

- عزيزتي، هل حدث لك مكروه

احست ماريا بفشل تمثيليتها التي لم تجد الوقت الكافي للإعداد لها

- كلّا، أنا متعبة واحتاج لبعض الراحة

ما إن انتهت ماربا من تلك الكلمات حتى تأكدت شكوك السيدة خلود في أن مكروه ما قد اصاب ابنتها، ولكنها فضلت التريث وعدم ازعاجها

- أتمنى أن يكون هذا كل ما في الأمر، خذي قسطًا من الراحة وسنتحدث لاحقاً

توجهت نحو غرفتها متجنبة نظرات والدتها الحادة

قامت بخلع معطفها وشالها بمجرد أن اقتربت من غرفتها، لترتمي على سريرها وتطرح أفكارها جانباً، تطالع السقف واضعةً هاتفها على صدرها

لم تكن ترغب في مواجهة والدتها بتلك الحالة، ولم تكن مستعدة لذلك إن حصل، ولسوء حظها فقد نسيت بأن والدتها قد قررت اليوم إعطاء " سوسن " خادمة المنزل اجازة حتى نهاية الأسبوع، ليتسنى لها الذهاب الى منزل عائلتها في احدى قرى دمشق البعيدة لحظور حفل زفاف شقيقتها

بدأ تأثير التعب الشديد يظهر من خلال اغلاق عينيها المتكرر، وقررت اخيراً ان تترك كل تلك الأفكار التي تراودها لبضع الوقت فهي بحاجة الي النوم ولو لساعة من الزمن

٦

_ انها تشبه السيارات الفارهة التي تظهر في التلفاز من حين الى آخر

كانت هدى جالسة أمام المدفئة وتجري سباق بين سيارتين صغيرتين من البلاستيك، وتتحدث الى جوليا، والتي كانت متقوقعة داخل صدفتها، تخرج راسها من حين الى آخر، وبقدر يمكنها من رؤية هدى وهي تتحدث اليها

_ لست متأكدة تماماً من أن هذه السيارة تعود ملكيتها لهذه الشابة التي جاءتنا اليوم، ولكن ما أنا متأكدة منه، أن هذه السيارة لا يتواجد منها سوى عدد محدود جداً، وبأنها المرة الأولى التي تدخل الى منطقتنا هكذا سيارة، لذلك فمن الطبيعي أن يجتمع بعض الاشخاص لمعاينتها والاستفسار عنها

صدر صوت من المدفئة جعل هدى تلتفت نحوها، ونتيجة لذلك الصوت المفاجئ ادخلت جوليا رأسها الى الداخل في محاولة لتجنب المفاجئة التي قد تحصل، ضحكت هدى من ردة فعل السلحفاة

_ جبانة، إنها بعض الرياح في الخارج تضرب مجرى الدخان، لا شيء يدعو للقلق

اخرجت جوليا القليل من رأسها لتتأكد من صحة تلك الأقوال، ولكن هدى لم يعجبها ذلك، فنهضت من مكانها واقتربت من المدفئة واخذت تنظر اليها

_ انظري جيداً، كفي عن جبنك يا جوليا

اخرجت رأسها مرة اخرى واخذت تلتفت يمنة ويسرة، وعندما احست بأن كل شيء على ما يرام نظرت نحو هدى للتابع الاستماع الى استنتاجاتها حول ضيفتهم صاحبة السيارة الجميلة

_ انها جميلة الى الحد الذي .....

ثم توقفت فجأة عن الكلام واخذت تنظر نحو جهة باب الغرفة، ابتسمت بعد ان تأكدت من ان سمعها يعمل بأقصى طاقته، امتدت يداها نحو جوليا، حملتها وغادرت نحو غرفة أحمد، حيث ستجلس وتستمع إلى معزوفته لهذه الليلة .

كانت هدى تعرف حالة أحمد النفسية من خلال الاستماع إلى الحان غيتاره، رغم أنها لم تدرس الموسيقى، ولم يسبق لها أن امسكت بآلة موسيقية، إلى أن ذلك الغيتار يتكفل بالإفصاح عن جميع الأحوال النفسية التي يعاني منها أحمد

كانت الحانه كئيبة، ولها رائحة مقززة

نعم، هنالك روائح للمقطوعات الموسيقية، تختلف عن بعضها البعض، وما يصرح به غيتار أحمد تتناسب مع هالة الشؤوم التي يحيط نفسه بها

كآبة الغرفة، وهيئته المخيفة صباحاً، والحانه المشؤومة، كل هذه الأسباب واسباب اخرى مشابهة جعلتها تخاف منه

وتخشى الاقتراب من غرفته، وتشعر بأنه انسان مجهول مليء بالأسرار ...

وبعد مرور نصف ساعة من الاستماع احست بأن صوت الموسيقى يتضاءل شيء فشيئاً، وهذا مؤشر على اقتراب الخاتمة التي كانت تنتظر الاستماع اليها بفارغ الصبر، حيث أن الخاتمة هي الصرخة الأخيرة التي يطلقها أحمد، والتي يبدع دائماً في اختيارها، ابتسمت و اغمضت عينيها لاستقبال صرخته

_ هدى

افزعها ذلك الصوت المفاجئ، لم تمهلها ريان سوى ثانية واحدة

_ ماذا تفعلين هنا، لماذا لم تنامي إلى الأن، ألم نتحدث سابقاً بهذا الأمر ؟

حاولت هدى أن تتحدث ولكنه لم تجد الكلمات المناسبة، اكتفت بالنظر نحو الأرض، صرحت ببراءة

_ أنا آسفة

احست ريان بفظاعة ما احدثته بعد أن استمعت إلى نبرة الطفلة البريئة، حيث أنه من المستحيل على أي إنسان أن يواجه نظراتها الحزينة، فضلً عن توبيخها

_ لا عليك يا عزيزتي

اقتربت منها واحتضنتها

٧

استيقظت ماريا فزعة بعد أن ملأ صوت الهاتف ارجاء الغرفة ....

_ يا إلهي، أتراه أحمد؟ ربما تقاوى عليه الألم، هل سأُسجن؟

تنفست الصعداء بعد أن وجدت المتصل صديقتها سلام، أطلقت شهيقا وزفيرا ثم أجابت

- مرحباً سلام، كيف حالك

- ماريا، هل ما سمعته حقاً ؟ منذ متى وانت تنامين بهذا توقيت

_ اني متعبة قليلاً واردت آخذ قسط من الراحة

_أين أنتِ يا فتاة ؟ لم أركِ منذ ثلاثة أيام ولم تجيبي على الرسائل والاتصالات ، هل انتِ بخير ؟

- عذراً يا سلام، ولكني مشغولة مع الصغار، وكما تعلمين فإن الامتحانات بعد اسبوعين والأمر يتطلب مجهود أكبر

- الاطفال، نعم نعم، ولكني قلقت بشأنك، كما انني محملة بكم كبير من الأخبار، متى اراكِ ؟

- غداً، سوف نتناول الغداء سوياً

- جميل جداً، سأكون متواجدة عند الساعة الثالثة في مطعم الريحان، الى اللقاء

أقفلت ماريا الخط ونهضت متثاقلة، كانت لا تزال ترتدي ملابسها التي خرجت بها صباحاً ، باستثناء المعطف والشال المرمي على الأرض

- سلام، صديقتي التي لم يغيرها الزمن، يحتاج اي شخص في حياته الى فتاة مثل سلام، ولكنّها كثيرًا ما تصر أن تعرف الحكاية كاملة، وقليلًا ما تنجح في جعلي أتكلم

كانت ماريا تحدث نفسها بذلك، سمعت صوت جرس المنزل يصدح

خرجت ماريا من غرفتها لترى من بالباب فوجدت أمها تستقبل صديقتها نورا وابنتيها روز وفاطمة

_ زيارة غير موفقة

فكرت بذلك وهي تصفف شعرها وترتدي ملابسها، فهي لا تستلطف صداقات والدتها، فالحديث معهم ممل ومليء بالرسميات

حيتهم وجلست بجوار الفتاتين واخذت تستمع الى الحديث الذي يجري بين السيدتين، كانت السيدة نورا تتحدث عن رحلتها القادمة رفقة اسرتها الى اسطنبول، وافصحت عن ان رغبتها كانت نحو باريس، ولكن إصرار زوجها الذي يشغل منصب كبيراً في الدولة حال دون ذلك

كانت ماريا تراقب تلك الاحاديث بصمت، وشعرت بتزايد الصداع الذي تعاني منه منذ عودتها من منزل أحمد، وبدت عليها علامات الضجر

اما الفتاتان فقد كانتا تتبادلان معها بعض الاحاديث عن العطورات والمكياج والألبسة، واقتصرت مشاركة ماريا في هذه الاحاديث على بضع كلمات " هذا رائع، حسنًا، جميل، نعم "

انسحبت للمطبخ تاركةً الأختان يتحدثان، أحضرت الضيافة محاولة اظهار نفسها بأنها على ما يرام

- ماريا أأنتِ بخير

فاجئها سؤال السيدة نورا، وقررت ان تستخدم كذبتها البيضاء مرة اخرى

- في الحقيقة انا متعبة قليلاً بسبب ضغط العمل، فلم يتبقى من الوقت سوى اسبوعين على موعد الامتحانات، وذلك يتطلب مجهوداً مضاعفاً

_ جميل جداً ما تقومين به يا ماريا، ولكن ذلك مرهق لك يا عزيزتي، بإمكانك ان توظفي احد الاساتذة ويقوم بتلك المهم بدل منك

اضافت والدتها

_ لا تتعبي نفسك يا نورا، حاولت مراراً من قبل ولكن دون نتيجة

نهضت ماريا وقد استشاطت غضباً

_ أنا متمسكة بهذا العمل، ولن اتخلى عنه مهما حصل

ثم توجهت نحو غرفتها متجاهلة نظرات والدتها الحادة، مخلفة ورائها جواً من الصمت على تلك الجلسة لعدة لحظات، اطرقت السيدة خلود وتحدثت بحزن ضاهر

_ منذ وفاة والدها تغيرت كثيراً، لم تعد ماريا كما كانت تشع نشاط وحياة، اصبحت تفضل البقاء وحيدة في غرفتها، ولم تعد تهتم كثيراً بما يجري من حولها، وهكذا حتى وجدت دار الايتام التي يملكها والد صديقتها سلام، وطلبت منه أن يوافق على عملها داخل الدار بصفة معلمة للغة الإنكليزية، وتحت إصرارها الشديد وافق على عملها، ومنذ ذلك الحين اصبح الاهتمام بالأطفال يشغل كل وقتها، ولم تفلح محاولاتي الكثيرة في ثنيها عن ذلك

بدا التاثر على الحاضرين، وعندما لاحظت السيدة سارة تغيراً في ملامح وجوه الفتيات قطعت حديثها

_ اخبريني يا نورا، كم ستستغرق رحلتكم الى اسطنبول ؟

٨

حل الليل، وحل سواده ليصبغ كل شيء، فظلمته مشابهة للذكريات التي تستحضرها، كانت تنظر الى دمشق من نافذتها الكبيرة، تبدو اكثر مهابة و جمال ليلاً، تنتشر آلاف المصابيح البيضاء والصفراء في كل انحائها محاولة ان تخفف من وطئة الظلام وحلكته، الا ان دمشق تأبى الا ان تعانق الظلام، خاصة وان الغيوم قد تكفلت بحجب الأنوار القادمة من السماء، منذرة بصباح ماطر

استلقت على سريرها واخذت كتاب ذا غلاف ابيض اللون، ليرافقها فيما تبقى لها من ذلك اليوم المليء بالأحداث، قبل ان تخلد الى النوم

كان الكتاب يحكي قصة حب جرت احداثها في مدينة روما، ابدع الكاتب في رسم احداث القصة، وجعل منها تحفة ادبية رائعة، اقنعتها سلام في اقتنائه، وأكدت لها بأنه سينال اعجابها

قرأت اول صفحتين

_ بداية مبشرة

قالت في نفسها

تابعت القراءة وبدأت تتعرف على شخصيات الرواية، شاب امريكي يعمل كدليل سياحي في أحد المتاحف المنتشرة بكثرة في روما، تعرف على سائحة امريكية الجنسية، فرنسية

المنشأ، وكان للكنتها الأمريكية الفضل الكبير في التعرف على الدليل السياحي ذو الوجه الوسيم، والذي كان مرافق للبعثة التي كانت احد افرادها داخل المتحف

احست بأنها فقدت كثير من احداث القصة نتيجة لشرودها المتكرر، فأعادت قراءة القصة مجدداً للتابع تسلسل احداث الرواية، ولكنها سرعان ما اكتشفت انها فقدت التركيز كلياً ولم يعد بإمكانها متابعة القراءة

ازاحت الكتاب واطفأت الضوء مستعدة للنوم، ووضعت فوقها ثلاثة اغطية سميكة لكي تكفل لها ليلة دافئة، وما أن اغمضت عينيها حتى غزتها مجموعة من الافكار، وكأنها تنتظرها حتى تغلق عينيها لكي تباغتها

قلبت المخدة مراتٍ

غيرت اتجاه المخدة

أبعدت عنها الغطاء

تغطّت مجدداً

لكنها لم تقوَ على النوم، وضعت ذراعها تحت رأسها، وبدأت تفكّر بالتفاصيل الغريبة التي لاحظتها على الشاب الذي قابلته صباح اليوم، واخذت تتحدث الى نفسها

- كانت الطفلة خائفة عندما شاهدت أحمد، ولم تهتم لإصابته، بل اكتفت بإخبار والدتها بذلك والهرب الى داخل احدى الغرف

_ كلّا، ليست ابنته، فهي لا تشبهه، ثم من تكون تلك المرأة، أيعقل ان يكون قريبهم ويعيش معهم بشكل مؤقت؟

تقلّبت ماريا على جانبها الأيمن بعد ان شعرت ببعض الآلام في جانبها الأيسر

- شخص ليس لديه اصدقاء، بل ولا اقرباء، هاتفه خالٍ من جهات الاتصال، سوى رقم واحد، وعندما تحدث اليه الطبيب انكر معرفته بذلك الشاب، أي غموض يلف حياته، وجدت نفسها امام كمية كبيرة من التساؤلات التي لا إجابة لها، ولا تحتمل اي نوع من التفسيرات التي فكرت بها

_ ما بال كل هذه الفوضى التي يعيش وسطها؟ حسنًا، الرجال لا يهتمون بالترتيب، ولكن ليس لهذه الدرجة، وما هو سر تلك المهدئات التي كانت متواجدة بالقرب من سريره، والأغرب من كل ذلك، هو وجود غيتار وسط هذه الفوضى العارمة .

حاولت ربط المعلومات واستنتاج شيء ما

_ حسناً، هو عازف غيتار يسكن عند احد اقربائه في بيت متواضع، لا يوجد لديه صداقات ولا يهتم كثيراً بهذا الجانب، يعيش في غرفة كئيبة لا تنتمي الى ذلك المنزل الجميل، ولا تنتمي الى هذا الكوكب ايضاً، ويحيط نفسه بكآبة مشابهة لكآبتها

_ قاسم مشترك

ضحكت ماريا عندما نطقت تلك الكلمات، تفكر بصوتٍ عالٍ وتسأل وتجاوب على أسئلتها، فكرت في ملامحه قليل وكانت عيناه آخر شيء رأته قبل ان يحل الظلام الأخير ....

٩

_ صباح الخير يا احمد

كان احمد يمسك بكأس من الماء، ويضع في فمه حبتين من المهدئات

_ هل تحتاج الى شيء يا عزيزي

وضع كأس الماء الفارغ على الطاولة الصغيرة، ومسح قطرات الماء التي علقت على شفتيه بكمه

_ لا

ارادت ان تتحدث ولكن صوت الجرس جعلها تتريث قليلاً

_ من يكون الطارق، لا يزال الوقت مبكراً على موعد قدوم ام سامر

فكرت في ذلك وهي تتجه نحو الباب ، فتحته واطلت برأسها

كانت ماريا تقف الى جانب الباب تحميل كيس صغيراً ابيض اللون

_ صباح الخير يا

تلعثمت

_ ريان ..... اسمي ريان

اجابت ريان ودعتها الى الداخل

_ عذراً، فالوقت لا يزال باكراً، ولكن ارتباكي في الامس جعلني انسى جلب الادوية الخاصة بأحمد، ها هي

ناولتها كيس الدواء الابيض وابتسمت لها

_ لا بأس يا عزيزتي، شكراً لكِ

_ كيف حاله، هل تألم في الليلة الماضية

حركت رحمة رأسها نافية ذلك

_ هو بخير

اشارت لها نحو باب غرفته تدعوها لرؤيته والتأكد من ذلك، ثم توجه الاثنان نحو الغرفة

ازاح عنه اغطيته الثلاثة، ووضع ساقه المصابة على الارض بعد ان سمع صوت ماريا

_ كيف حالك يا احمد

_ بخير

_ هذه بعض الادوية التي وصفها لك الطبيب

_ نعم، بحثت عن الورقة ولكني لم اجدها، ظننت اني اسقطتها في مكان ما، شكراً لك يا ماريا

تفاجأت عندما سمعته ينطق باسمها، ثم تذكرت انها دونت اسمها على هاتفه

في البداية تبادلوا بعض الاحاديث التي لا فائدة منها سوى إمضاء الوقت، ثم انتقلت ماريا الى الاستفسار عن عمله، كان يجيب باقتضاب شديد، فهو يفضل الصمت والنظر الى

اللاشيء، علمت من الكلمات القليلة التي تحدث بها انه يعمل في احد محلات الألبسة، وانه درس الموسيقى فيما مضى، ولكن ضرف ما منعه من إكمال دراسته

مرت نصف ساعة على زيارتها، وكانت هي من توجه الأسئلة، وفي بعض الاحيان تضطر الى التريث قليل قبل توجيه سؤالها كي لا يشعر بالضجر، جلبت لهم ريان كوبين من الشاي الساخن وصرحت

_ ان الشاي افضل خيار في هكذا صباح بارد

١٠

رن جرس المدرسة معلن عن نهاية آخر حصة لهذا اليوم، بدا ان المعلمة المتقدمة في السن متشوقة لسماع هذا الصوت اكثر من الطلبة انفسهم، لذلك فقد اعدت حقيبتها الكبيرة على عجلة من أمرها وغادرت الصف، اما الطلبة فقد كانوا جالسين بهدوء تام يراقبونها وهي تخرج، وما ان غاب جسد المعلمة عن الانظار حتى بدأت تتعالى الأصوات من كل مكان، وطغت الفوضى العارمة على خروجهم

لم يكن الوضع خارج المدرسة افضل حال من داخلها، فقد كانت الساحة الصغيرة المقابلة لباب المدرسة تعج بالأطفال الملتفين حول الباعة المتجولين، واطفال آخرين يجرون خلف كرة قدم مهترئة فارغة من الهواء، وجدوها مرمية على حائط المدرسة، وآخرين يسعون الى تصفية بعض الحسابات المؤجلة منذ ساعات الصباح الأولى بين بعضهم البعض

وفي وسط هذه الفوضى كانت هنالك فتاتان صغيرتان تحاولان اجتياز المنطقة المكتظة بأقل الأضرار، كانا يمسكان بأيدي بعضهما البعض وهما تسيران، وكأنهما لا ينتميان الى هذه الفوضى، ولا يفضلان الانخراط فيها كبقية زملائهم، تحدثت هدى

_ ها قد انتهينا يا لينا

كانت هدى تتحدث الى صديقتها المفضلة لينا، والوحيدة نوع ما، ولكن الفوضى اجبرتها الانتظار قليل حتى يتسنى الى لينا سماعها

_ نعم، تابعي حديثك، من تكون تلك الفتاة ؟

_ لا اعلم، ولم يسبق لي أن رأيتها في منزلنا، ولكن عندما دخل الجميع الى الغرفة اقتربت من الباب واستمعت الى الحديث الذي دار بينهم، تبين لي بأن تلك المرأة هي من تسببت بإصابة قدم أحمد، وذلك عندما كانت تقود سيارتها بسرعة غير اعتيادية

_ وماذا حدث بعد ذلك

_ لاشيء، بعد ان اطمئنت المرأة على صحة أحمد، انهت كوب الشاي وغادرت المنزل

كانت هدى تعاني من حقيبتها المدرسية المثقلة بالكتب والدفاتر وبعض الاطعمة التي تصر والدتها على وضعها في حقيبتها، توقفت عن السير وانزلتها الى الأرض كي تريح كتفيها لبعض الوقت، ولكن بوق احد المركبات من خلفها اجبرها على حملها مجدداً والوقوف على جانب الطريق، وبعد ان احست ببعض النشاط حملتها و تابعت مسيرها نحو المنزل، تحدثت لينا

_ انها فتاة طيبة، ولو لم تكن كذلك لما اسعفته الى المستشفى واعادته الى المنزل

اكدت هدى على كلام صديقتها

_ وجميلة ايضاً، وعطرها مميز، وكما اسلفت لك، لديها سيارة مذهلة لا يتواجد منها الا في .....

وما ان دخلت هدى الى الزقاق المؤدي الى منزلها حتى توقفت عن الكلام، استغربت لينا سكوت صديقتها ونظرت اليها، وجدتها تنظر اليها وتشير لها نحو باب منزلها، وقالت

_ انها هنا

لم تبالغ هدى كثيراً عندما تحدثت لها عن هذه السيارة، فهي حقاً مذهلة، ولا تنتمي الى هذا المكان، كبيرة الحجم، بيضاء اللون، بدا ان احدهم اعتنى كثيراً بغسلها وبتلميعها، للحد الذي جعل لينا تتمكن من رؤية هدى من خلال اللون الأبيض الذي يصبغ حديد السيارة، صرخت لينا

_ مذهلة

كانت هدى منشغلة بالنظر الى داخل السيارة من خلال البلور الخلفي، قطة بيضاء صغيرة تقف بلا حراك اسفل البلور الأمامي، وصورة صغيرة موضوعة على البلورة الصغيرة في سقف السيارة، دفعها الفضول الى الاقتراب من البلور الأمامي والنظر جيداً الى صورة الرجل، بدا ان الرجل متقدم في السن، يمتلك وجه مدور ونظرات حادة، حليق اللحية والشارب، وقبل ان تغادر عيناها تلك الصورة لاحظت وجود خيط اسود مائل في الأعلى

باستثناء ذلك، لم يكن هنالك شيء آخر يلفت النظر داخل السيارة

جرى نقاش لبضع دقائق حول السيارة بينها وبين لينا قبل ان تودعها، فهي تخشى ان تتأخر اكثر من ذلك على موعد عودتها الى المنزل، وبالتالي تتعرض الى اسئلة والدتها

ضغطت على الجرس ضغطة خفيفة تسببت بهروب ثلاث حمامات وعصفورين من على شجرة التين في وسط المنزل، سمعت صوت خطوات والدتها السريعة، وما ان فتحت لها الباب واشارت لها بالدخول حتى سارعت الي العودة الى الداخل مجدداً

كانت الفتاة الغريبة تجلس مع والدتها الى جوار نافورة المياه، بينما كانت جوليا تحت كرسي المرأة، وحولها خيارة ومجموعة من الأغصان الخضراء، وهي وجبتها المفضلة

_ اقتربي يا حلوتي، ما اسمك

توجهت اليها ماريا بالكلام، واخرجت لها مجموعة من السكاكر المغلفة بأكياس النايلون الملونة

_ هدى

اجابت بذلك وهي تنظر الى السكاكر، لاحظت ماريا ذلك و اخرجت لها المزيد من السكاكر

_ اسم جميل، اقتربي يا عزيزتي، كلها لك

احمرت وجنتاها وهي تضع السكاكر في يدها، ولاحظت ان المرأة تفوح منها رائحة عطر مختلفة عن عطر البارحة، لم تفكر كثيراً، حملت جوليا واستدارت نحو غرفتها تمنى نفسها بالتلذذ بالسكاكر الشهية، تاركة المجال لوالدتها لتتابع حديثها مع المرأة، ولكن الفضول دفعها الى الجلوس عند باب

الغرفة، لتستمع الى الحديث الذي يجري بين المرأتين وهي تمضغ السكاكر، تحدثت والدتها

_ جرى ذلك منذ خمسة اعوام، كنت حينها في السابعة عشر من عمري، عندما كتبت الصحف والمجلات عن فاجعة هزت دمشق، عائلة من ستة افراد تعرض منزلها لحريق كبير، لم ينجو منه سوى شاب في الثانية والعشرين من عمره بجروح طفيفة ، وفتاة من افراد العائلة كانت في زيارة عند احدى صديقاتها ....

تابعت حديثها

_ يقول من شاهد الحريق بأن المنزل تحول الى كتلة من اللهب، وكان لتأخر رجال الاطفاء دور في امتداد الحريق الى جزء من احد المنازل المجاورة، ولدى وصولهم تمكنوا من اخراج الشاب الذي كان في حالة اغماء تام، والغريب في الأمر بأن ذلك الشاب خرج من كتلة اللهب تلك و لم يصب بحروق كبيرة، ولكن الدخان الكثيف تسبب له بحالة الإغماء، اما الاربعة الباقون فقد فارقوا الحياة

فقدنا على اثر ذلك الحريق أمي وأبي وأيهم وسناء الصغيرة وكل شيء جميل، هكذا بلمح البصر تحطم كل شيء، ظن من سمع بتلك الحادثة بأننا نجونا أنا وأحمد، على العكس تماماً، ففي اللحظة التي اعلنت فيها فرق الإطفاء عن السيطرة على الحريق، اشتعل حريق من نوع آخر في داخلي ولم ينطفئ حتى الأن، تبين لاحق بأن ماس كهربائي كان السبب وراء ذلك الحريق

كانت ماريا تستمع الى القصة التي تلقيها ريان على مسامعها، متألمة لما جرى لهما، ارادت ان تتحدث اليها لتواسيها ولكنها فضلت عدم مقاطعتها والاستماع اليها حتى النهاية

_ توقف الزمن لدى أحمد عند ذلك اليوم المشؤوم، وترك دراسته في المعهد الموسيقي على اثر تلك الحادثة، واصبحت الأيام لديه مجرد اعداد لا اكثر، ينتظر نهاية اليوم بفارغ الصبر فيأتي الغد مسرعاً، لينتظر نهايته بنفس الطريقة ايضاً، كانت السنتين التي اعقبت ذلك الحادث من اصعب السنوات، إذ كان يبكي منذ أن يستيقظ حتى المساء، وفي الأوقات التي يتوقف فيها عن البكاء كنت استمع الى مناقشاته مع أيهم، والذي كان يصغره بأربعة سنين، يعاتبه بعض الأحيان عن تأخر عودته، ولكن سرعان ما يبدأ يحتال عليه بدهاء محول كلمات العتب الى ضحكات تسمع حتى خارج المنزل

وعندما اخبرت الطبيب بذلك اعطاه مجموعة من الأدوية، احس بتأثيرها فرفض استخدام اي منها معلل ذلك بأنها ستحرمه من رؤية أيهم مجدداً

وبعد مرور السنة الثالثة تحسنت حالته بعض الشيء، في بداية الأمر ظننت بأن عيناه جفتا تماماً ولم يعد بمقدورها ضخ دمعة اضافية، الا أن ارتداء ملابسه وخروجه من المنزل أكد لي بأن حالته قد تحسنت فعلاً، ولاحقاً اكملت دراستي وحصلت على شهادة جامعية في الاختصاص، اللغة

العربية وتزوجت من نادر، زميلي في الجامعة وكانت هدى ثمرة ذلك الزواج

_ ولكني لم ارى نادر هنا

_ نعم، لقد غادر قبل سبعة اشهر الى دولة السعودية للعمل كمدرس لمادة اللغة العربية

صدر صوت رنين الموبايل من داخل حقيبة ماريا، قاطع بنغمته الهادئة حديث ريان

_ ماريا، اين انتِ

ابعدت الموبايل عن اذنها ونظرت الى موضع الساعة اعلى الشاشة، كانت تشير الى الثانية والربع تماماً

_ كيف حالك يا سلام، غادرت المنزل قبل بضع دقائق، والأن انا في الطريق اليكِ

اعقب ذلك صمت لبضع ثوان على الطرف الآخر

_ احببت ان اذكرك بالميعاد، انا بانتظارك، الى اللقاء

ضغطت على الزر المخصص لإنهاء المكالمات واعادت الموبايل الى حقيبتها

_ عذراً

_ لا بأس يا ماريا

خانتها جميع الكلمات التي كانت تعدها لمواساة ريان بعد هذا الكم الهائل من الأحداث التي القتها على مسامعها، فكرت اخيراً

_ عذراً يا ريان، فقد تسببت اسئلتي الفضولية في بداية جلستنا الاولى في استحضار بعض الذكريات المزعجة، متأسفة لذلك

_ لا عليك يا عزيزتي، اتمنى أن لا تكون هذه الجلسة الأخيرة بيننا، وتعاودي زيارتنا كلما وجدت وقت لذلك

_ بالتأكيد

١١

مطعم الريحان

يقع مطعم الريحان في ارقى احياء العاصمة، وهو مبني على الطراز الدمشقي العريق، وقد اولى اصحابه اهتمام كبيراً في العناية بالورود والمزروعات التي تميز المكان، وقد علقت على جدرانه صور مجموعة كبيرة من الشخصيات المرموقة التي سبق لها زيارة المكان

تجاوزت ماريا المدخل الرئيسي، ووجدت سلام جالسة على طاولة جانبية، ومنغمسة في إجراء مكالمة هاتفية، وضعت يدها على كتفها وهي تبتسم

_ مرحباً يا ماريا

احتضنتها سلام، وجلست الى جوارها

_ هل انت هنا حقاً، ليس هذا حلم صحيح

ضحكت ماريا من دعابة صديقتها

_ نعم نعم، انظري، هذه انا ماريا

واشارت الى نفسها

طلبا كوبان من القهوة، و بدا أن سلام محملة بأحاديث كثيرة وتريد الدخول فيها بلا مقدمات

- ماريا، اسمعيني جيداً، هناك شيء هام اريد ان اخبرك به

كانت ماريا تستمع اليها محاولة استكشاف ذلك الشيء الهام

_ أتذكرين أمير

زمت ماريا شفتيها مستغربة، استدركت سلام

_ زميلي في العمل

هزت ماريا رأسها وهي تتذكر ذلك الشاب صاحب الصوت الناعم والعينين الخضراوين

_ نعم تذكرته، ما به ؟

لاحظت ماريا تلكأ سلام غير المعتاد

_ سلام، ماذا هنالك

- لا أعلم لكنّه يتصرف بغرابة في الفترة الأخيرة، أعني انه ..

شيء ما جعلها تحجم عن إكمال كلامها، ولم تستطع النظر الى عيني صديقتها التي بدا انها متشوقة الى سماع تتمة القصة

_ أنه ماذا، اكملي

- اشعر بأنه يحاول التقرب الي، فابتسامته تلاحقني في كل مكان، وفي اوقات الفراغ يحاول الحديث الي ويسألني دائماً عن بعض الأمور التي افضلها

استغربت ماريا حديث سلام، فهي تعرفها جيداً، لا تلقي بال لملاطفات الشبان التي تتعرض لها بكثرة، ولكنها وجهت لها

بعض الأسئلة حتى تتمكن من معرفة التفاصيل الدقيقة لكل شيء، وفي النهاية سألتها ماريا

_ وانتِ، ما رأيك بذلك

توردت وجنتيها عندما سمعت سؤال ماريا، وافلتت منها ابتسامة حاولت إخفائها كثيراً

_ وكيف لذلك المسكين رؤية ابتسامة كهذه و لا يغرم بك، حسناً يا عزيزتي سأخبرك بشيء، تملكين ابتسامة تجعل جميع الرجال يتنافسون للفوز بها

ازداد تورد وجنتاها، ولم تسعفها الكلمات رغم انها كانت مستعدة لأجوبة ماريا المتوقعة، استجمعت قواها

_ لا اعلم ما علي فعله، ماذا تنصحيني ؟؟

عدلت ماريا من جلستها وسحبت نفس عميقاً، وهذا ما كانت تفعله عندما يطلب احداً رأيها في موضوع هام

_ اسمعيني جيداً يا سلام، الحب دقتان، الأولى على باب القلب، وهذا ما حصل بينكما مؤخراً، والثانية على باب المنزل، وهذا ما يجب أن يحصل، إن كان صادق في مشاعره فيتوجب عليه التقدم بشكل رسمي للزواج بكِ

هزت سلام رأسها وهي تستمع الى كلمات صديقتها التي تركت اثراً كبيراً في داخلها، واجابت

_ هل يعقل أن يحصل ذلك يا ماريا

_ ولم لا، أمير شاب يمتلك جميع الصفات التي تحلم بها أي فتاة

لمعت عينا سلام وعبرت عن سعادتها بابتسامة جميلة

مضى الوقت سريعاً، ولم تشعر الفتاتان الا عندما حل المساء، فالوقت عدو الجلسات الجميلة، استرسلت الفتاتان بالحديث والضحك على بعض المواقف القديمة التي جمعت فيما بينهم اثناء الفترة الدراسية

وما أن اشارت الساعة الى الثامنة حتى عزمتا على مغادرة المطعم، فمنزل سلام بعيد ويتوجب على ماريا إيصالها والعودة الى المنزل مجدداً، القت ماريا نصائحها الأخيرة على اسماع صديقتها قبل ان تودعها عائدة الى المنزل .

رجعت ماريا لمنزلها بروح جديدة، فالأحاديث المطوّلة مع صديقٍ حقيقي يمكن أن تفعلَ الكثير ..

الفصل الثاني

١

صمت، ظلام يملئ المكان، ورياح شديدة مصحوبة بندف الثلج الصغيرة، وسيارات مسرعة تروح وتجيء

كان أحمد يجلس على أحد المقاعد الخشبية المبللة في حديقة المنزل المجاورة، ينظر إلى ساعته ويراقب دوران عقاربها غير آبه بالبرد الذي مزق جسده

_ لقد تأخر اليوم أيضاً

ما أن نطق بتلك الكلمات حتى ظهر له شخص من آخر الشارع يتجه نحوه بتأني شديد

_ إنه هو

ركض نحوه مسرعاً واحتضنه، أخذ يقبله ويتفحص قسمات وجهه الذي بدا عليه علامات الكآبة والحزن

_ أيهم، لقد اشتقت لك كثيراً يا أخي

لم يجبه، بل كان يظهر لا مبالاة مبالغ فيها، تجاوز أحمد وسار باتجاه المقعد الخشبي وجلس الى يمينه

_ أيهم، ماذا هنالك

نزع قبعته ونظر اليه لأول مرة

_ الم تعدني البارحة بأن تخرج اليوم من تلك الغرفة الكئيبة .

اطرق أحمد رأسه لبضع ثوان وأحس بذنبه، تابع أيهم

_ لم أعد اثق بوعودك يا أحمد، فقد وعدتني سابقاً بأن تصغي إلى كلام الطبيب عندما اخبرك بضرورة تناول الدواء المناسب، ولم توفي بذلك، نعم، هل نسيت وعدك لي بأن تبتعد عن مقبرة السعادة التي تتردد عليها دائماً

لم يجب أحمد، بل اخذ يبكي بشدة، مصدراً صوت انين مكبوت، رق قلب أيهم له فاحتضنه وقبل رأسه

_ آلمني ما اصابك يا أخي، ولكني أتألم اكثر حين اشاهدك بعيد عن ريان وهدى، فهم بحاجتك في كل وقت، بالإضافة لابتعادك عن الجميع

صمت أيهم لنصف دقيقة ثم تابع

_ سوف يعود أحمد الذي كان يحب الضحك والحياة، سوف يعود احمد الذي أعرفه .... اليس كذلك

نطق أحمد رأسه ونظر نحوه

_ نعم، أعدك يا أيهم ....

نهض احمد من نومه وهو يردد

_ نعم اعدك يا ايهم، نعم اعدك يا ايهم

كان ذلك احدى كوابيسه المتكررة، كان يحاول ان يتذكر تفاصيل ذلك الكابوس مستحضراً صورة اخيه، فكر قليلً في كلماته الأخيرة واستنتج

_ ايهم متضايق مني، الى درجة أنه رفض أن يتحدث الي في البداية، لن اسمح لذلك بأن يحدث مجدداً ..

كانت الأيام تتشابه، لم يعد بمقدوره مغادرة المنزل، كل ما كان يفعله هو إضاعة الوقت بإحراق السجائر وأحياناً عزف بعض الألحان، لفّت عقارب الساعة، انقضت ساعةٌ، فيومٌ، فالثاني، فأسبوعين

تكررت زيارات ماريا الى منزل أحمد، حتّى بدا وجودها بينهم مألوفًا، تساعد هدى الصغيرة في واجباتها المدرسية، وتساعد ريان في اعمال المنزل، و بدأت مؤخراً في الدخول الى المطبخ وتعلم اعداد الوجبات المختلفة، وعلى الرغم من انها كانت معتادة على حياة الترف والرفاهية في منزل والديها، الا ان ذلك المنزل منحها اشياء كهذه كانت تفتقدها

كانت حالة احمد تتحسن تدريجياً، وحصلت جلسات ثنائية كثيرة جمعته بماريا، حاولت مراراً التقرب منه والاستفسار عن بعض الأشياء الغامضة التي يحيط نفسه بها، واجه محاولاتها المتكررة بالرفض، ولم يفسح لها المجال للتقرب اكثر، بل انه امتنع عن الجلوس معها في احد الأيام مدعياً النوم خوفاً من اسئلتها واستفساراتها

احضرت له كتاب يحكي قصة حب جرت احداثها في مدينة مدريد، وطلبت منه ان يقرأها في اوقات فراغه، واخبرته بأنها متشوقة لسماع رأيه بتلك القصة الجميلة، لم يكن تقربها

من أحمد نابع من شفقة كما كان يضن هو، والحقيقة أن ماريا نفسها لم تجد تفسيراً لتقربها منه، الا انها كانت تشعر بسعادة كبيرة عندما تتحدث اليه، وخاصة في الأوقات التي يقرر فيها الانخراط معها في نقاش حول موضوع ما

حدث أن لاحظت في اليومين الآخرين بعض التغيير في سلوك احمد، اصبح يهتم بهيئته قليل، ولم يعد يستعمل الحبوب المهدئة بكثرة كما في السابق، وقد اخبرتها هدى بأنه امضى ليلته وهوا يعزف الحان جميلة على غير العادة، استغربت في بادئ الامر هذه الأنباء، ولكن ابتسامته لها في آخر جلسة جمعتهما أكدت لها بأن شيء ما قد حدث، وبأن جهودها بدأت تأتي ثمارها، أما هدى فقد اصبحت صديقتها المقربة، يتبادلان الأسرار بعيداً عم اسماع ريان وأحمد ...

في عشية ذلك اليوم المشمس على غير عادة ايام الشتاء، تركت ماريا هدى تضع الطعام لجوليا وذهبت لتطمئن على أحمد، وجدت باب غرفته مفتوحًا فطرقت لتُعلمَهُ بقدومها ودخلت على الفور، فُزع وراح يلملم أوراقه كأنه يخفي أثار جريمة ارتكبت للتو

- أعتذر، وجدت الباب مفتوحًا فظننت أنك لن تمانع ....

قاطعها

- بالطبع لا مانع لديّ، كنتُ أدون بعض الاشياء، تفصلي

- حسنًا أتريد أن أُحضر لك شيئًا ما؟

- نعم، في الحقيقة ... أريد أن أجلس معكم في الغرفة الثانية

صمت قليل

_ هلا ساعدتني

ابتسمت ماريا لذلك النبأ وسارعت الى مساعدته على النهوض، أجلسته على الأريكة الخضراء المريحة، وكانت علامات السعادة ظاهرة على وجهه

اقتربت منها هدى وهمست لها

_ هل ما يجري حقيقة ؟ هذه اول مرة اشاهده يجلس هنا في هذه الغرفة

ارتسمت على وجه ماريا ابتسامة مشرقة، واخذت تستمع الى ريان وهي تلقي على اسماعهم بعض الأحاديث التي اخبرنها بها نساء الحي صباحاً، شاركتها ماريا ببعض الاحاديث عن عملها في دار الأيتام، وعن الاحاسيس الجميلة التي تنتابها عندما تقدم خدمة لطفل صغير

كان أحمد يراقبها من حين الى آخر، ينظر الى طريقة حديثها والي عيناها التي تجيدان التعبير اكثر من كلماتها

وعندما احست ماريا بأن موعد عودتها الى المنزل قد حان اعتذرت اليهم واخبرتهم بأنها مضطرة الى المغادرة

عدّل أحمد من جلسته وتنحنح وقد احمرّ وجهه

_ أحقًّا لا يمكنكِ البقاء

التفتت الأنظار نحوه وكأنه تكلم بشيء غير مألوف، استدرك

_ سيكون جميلاً إن بقيت معنا على الغداء

توردت وجنتها خجلاً، وأجابت

- أود ذلك فعلاً، لكن الوقت تأخر، ربما في وقت آخر

ارتدت ماريا معطفها ولوحّت تلويحه وداعٍ صغيرة وهي تبتسم لأحمد، الذي ظلّت عيناه تراقبها وهي ترحل حتى اختفت عن ناظريه . .

لحقت بها هدى إلى الباب وهي تحملُ جوليا

_ جوليا تحب مشاهدة سيارتك الجميلة

ابتسمت ماريا وهي تستمع الى كلمات الطفلة العفوية

_ حسناً يا صديقتي، ما رأيك أن اصطحبها غداً في جولة حول المدينة، وبالطبع ستكونين متواجدة برفقتها بعد عودتك من المدرسة، هل تظنين بأن جوليا ستوافق على ذلك العرض

سارعت الطفلة الى إجابتها

_ نعم نعم، هي موافقة

٢

_ لقد طلب مني البقاء

فكرت ماريا في ذلك مطولاً وهي تنظر في صفحة الرواية، اغلقتها وشردت في الفراغ

منذ أن دخل أحمد الى عالمها لم تتمكن من إنهاء الرواية التي بدأتها منذ اسبوعين، ما ان تقرأ قليل حتى تظهر لها ملامحه من بين السطور

_ ما تفسير تلك التغييرات التي بدأت تراها على سلوك أحمد، وهل هي معنية بالأمر

كل تلك الأسئلة كانت تراودها دون إجابات محددة، ولكن ما كان واضح هو التغيير الفعلي الذي بدأت تراه على حياة أحمد، بقيت تفكر في ذلك وقت لوقت طويل، حتى باغتها النوم ..

استعدّت هدى للمدرسة بنشاطٍ غير مسبوق، بعد أن أخبرت عائلتها عن حديث ماريا لأخذها بجولة بالسيارة، مانعتْ ريان قليلا في بادئ الأمر ثم رضخت تحت نظرة ندى البريئة وتدخل احمد

ارتدت هدى ملابسها الجديدة، والتي كانت مخصصة للمناسبات المميزة، اختارت فستان احمر وحقيبة بيضاء، ولأول مرة، اخرجت علبة العطر التي اهدتها اياها والدتها في عيد ميلادها السابق، ووضعت بضع قطرات منها على

يديها، واعادتها الى مكانها مجدداً، وقبل عودتها من المدرسة، اخبرت لينا عن المتعة التي ستحظى بها هذا اليوم، وعن سعادتها الكبيرة بتحقيق امنيتها في ركوب تلك السيارة الجميلة، وتحدثت لها ايضاً بأنها ستجلس الى جوار ماريا وستتمكن من التحكم ببلور السيارة الجانبي، تغلقه وتفتحه متى تشاء، وبضغطة واحدة ...

كانت ماريا جالسةً بانتظارها في فناء المنزل رفقة امها وخالها، تحمل بيدها كوبٌ شاي ساخن يتصاعد البخار منه، رحّبت الطفلة بها اجمل ترحيب منذ قدومها الى المنزل، وجلست تنتظر انتهاء كوب الشاي وهي تنظر الى الخارج نحو السيارة، وبعد عدة لحظات فقدت الطفلة اعصابها وقالت لماريا

_ متى سنذهب

ضحك الجميع، وخاصة احمد، كان يضحك كما لو انه يضحك لأول مرة، فقد اجبرته اصابته على المكوث في المنزل والتعرف على ساكنيه، ونتيجة لذلك فقد اصبحت الفتاة لا تهرب منه كما كانت تفعل سابقاً، بل اصبحت تتجرأ وتدخل غرفته وتتحدث اليه، وكانت ريان وطفلتها مسرورتان بالضيفين الجديدان

انطلقت السيارة، واخذت هدى تتعرف على التفاصيل الدقيقة للمركبة، والتي كانت تشاهدها من وراء البلور، اما الأن فقد استطاعت ان تلمسها بيدها، طلبت من ماريا أن تدلها على الزر الخاص بالتحكم بالنافذة البلورية، وحين اشارت لها نحوه ضغطت على أحد جانبيه فارتفع البلور،

ضغطت على الجانب الآخر فعاد البلور الى حالته السابقة، واخذت الطفلة تفتحها وتغلقها وتضحك بشدة، حملت جوليا وتحدثت اليها

_ جوليا، انظري كم هي جميلة

سألت هدى عن كل تفصيل وجد داخل السيارة، وامعنت النظر في القلادة المعلّقة، والإكسسوارات التي زينت بها ماريا سيارتها، بدت سعيدة وهي تحدث جوليا وتعرفها على اجزاء السيارة

وصلت بهم المركبة إلى كافتيريا متخصصة بتقديم مختلف أنواع الشكولاته والكاتو والحلويات، واجلستها الى جوارها واخذت تحدثها عن انواع الشكولاتة المفضلة لديها، تهافت العاملون في الكافتيريا على خدمتهم فهي تتردد دائماً الى هنا صحبة سلام، والعاملون معتادون على إكراميتها السخية

اقتربت الطفلة منها وهمست لها بعيداً عن اسماع جوليا

_ هنالك شيء هام

ابتسمت ماريا واشارت لها بمتابعة حديثها

_ جوليا لا تحب الشكولاتة ولا الحلويات

وضعت ماريا يدها على فمها معبرة بذلك عن دهشتها، اقتربت من الطفلة وهمست لها

_ وما هي وجبتها المفضلة

ودون ادنى تفكير اعلنت هدى

_ الخيار وأوراق الشجر، إنها تعشق الخيار وتفضله على جميع الأطعمة

_ حسناً

اشارت لأحد العاملين

_ من فضلك، اجلب لنا صحن من الخضار المشكلة

سارع العامل الى تلبية طلب الفتاة، واحضر لها صحن مليء بالخضار المقطعة والمصفوفة بطريقة هندسية جميلة

كانت ماريا تستمع مشاكل هدى في المدرسة

_ فوضى كبيرة

لم تجد هدى كلمة افضل من هذه لتصف حال المدرسة، ثم تابعت

_ ما ان ينتهي الدرس حتى يبدأ الصراخ في كل مكان، في داخل الصف، في الباحة، خارج المدرسة، بالإضافة الى مشاكل اخرى كثيرة لا نهاية لها

وضعت لها ماريا قطعة كاتو مغطاة بالكريمة البيضاء وفي أعلاها ثلاث حبات كرز، وصحن آخر يحتوي على قطعتي شوكولاته ، وما أن شاهدت هدى ذلك حتى توقفت عن الكلام وامسكت بقطعة شوكولاته

_ اخبريني يا هدى، هل لديك اصدقاء

هزت رأسها موافقة واجابت

_ نعم، لينا، انها صديقتي في المدرسة وخارجها

واخذت تحدثها عن لينا وكيف انها تحدثها عن اسرارها، والتي لا يطلع عليها احد سواها، وعندما انتهت من قطعة الكاتو اقتربت من ماريا وكأنها تريد أن تحدثها دون أن يسمع احد

_ ماريا، هناك شيء هام

اقتربت منها ماريا وهي تخفي ضحكتها

_ اخبريني، ماذا

فتحت هدى حقيبتها واخرجت منه احمر شفاه واعطتها اياه، استغربت ماريا ذلك

_ من أين لك هذا ؟

_ هذا احمر الشفاه الخاص بأمي، طلبت منها سابقاً ان تسمح لي بوضع القليل منه ولكنها رفضت ذلك، اريد منك أن تساعديني، فأنا لا أعرف كيف يضعونه، ولكن يجب أن يبقى هذا سر بيننا

انفجرت ماريا بضحكة تسببت بلفت انظار جميع من في الكافتيريا نحوهم

_ حسناً، لكِ ذلك

وفي طريق العودة كانت هدى تنظر حولها وتراقب الأبنية المرتفعة، والسيارات التي تملئ الشوارع، وخلف كل ذلك كان يطل قاسيون بأضوائه الباهرة، كان مشهده مهيب مما جعلها تطيل النظر اليه

وما ان وصلت السيارة الى منزلها حتى عبرت عن سعادتها الشديدة بهذه الجولة

_ سيبقى هذا اليوم في ذاكرتي طويلاً، فهو اجمل يوم على الإطلاق

ضحكت ماريا

- انها البداية فقط، لايزال هناك الكثير من الجولات يا حلوتي

مدّت ماريا يدها خلف كرسي هدى وأخرجت كيسًا صغيراً، أعطتها إياه، استغربت الطفلة بادئ الأمر وتحسست محتوياته من الخارج، لم يدم ذلك سوى بضع لحظات حتى نزعت الغلاف الخارجي ونظرت في الداخل، كانت تحتوي على عطر وردي اللون ودمية بحجم جوليا ذات جدائل صفراء

_ هذه لك يا صديقتي

- انها جميلة جداً، شكراً لك على كل شيء يا ماريا

مسحت على رأس الصغيرة وابتسمت لها، وقبل ان تودعها، اخرجت منديل ومسحت شفتي الطفلة خوفاً من اسئلة ريان، ثم لوحت لها بيدها

_ الى اللقاء يا حبيبتي ...

٣

كان أحمد يجلس في غرفته ويتأمل في صفحات الكتاب الذي اهدته اياه ماريا، قرأ بضع صفحات تبين له من خلالها بأن الكاتب يستخدم اسلوب رائع يجذب القراء، ويختار كلماته بعناية مقدماً القصة بأجمل طريقة

ولسوء حظه فقد انهى آخر سيجارة من علبة السجائر الثانية معلن بذلك انتهاء السهرة، فبدون السجائر لا يمكنه الصمود لساعة واحدة، وضع الكتاب على الطاولة الخشبية الصغيرة، وتوارى تحت اغطيته ...

سمع صوت خطوات تقترب من جهة فناء المنزل، توقف الصوت لثانيتين، وهو ينظر الى جهة الباب، فُتح باب غرفته ودخل أيهم وقد بدت عليه علامات السرور والبهجة

_ أيهم

انتفض أحمد من بين اغطيته وكأنه تلقى صعقة كهربائية

_ لقد اشتقت اليك يا أيهم

_ وانا كذلك يا أحمد، وجئت الى هنا بنفسي لأعبر لك عن امتناني لكل ما تبذله من اجلي

هز أحمد رأسه معبراً عن استغرابه من كلام أخيه، رغم انه كان يعلم جيداً مقصده، ولكنه أحب إطالة امد الحديث

_ ماذا، وماذا بذلت من اجلك، عن ماذا تتحدث يا اخي

ابتسم له أيهم واخفض رأسه موجه له نظرة يعرفها جيداً، لم يدم الأمر طويلاً

_ نعم، إني احاول تنفيذ ما وعدتك به سابقاً، فرؤية هذه الابتسامة هي اقصى ما اتمنى

مضت عدة دقائق تحدث له فيها عن بعض الأمور التي جرت مؤخراً داخل المنزل، بعد أن أصبح أحد ساكنيه حديثاً، تحدث له عن هدى الجميلة وسلحفاتها، وعن ريان، وعندما وصل به الحديث إلى ماريا تلكئ قليلاً

_ نعم، ماريا، تلك الفتاة التي تسببت لي بهذه الإصابة، هي تتردد الى هنا كل يوم، وقد نشأت علاقة قوية بينها وبين ريان، فهم يتبادلون الاحاديث طوال الوقت، حتى اثناء عملهم في المطبخ، وكما تعلم، فالنساء لا يملون من الكلام والثرثرة

ضحك أيهم مرة اخرى وبدا مستمتع بالحديث الدائر، أخرج من جيبه علبة سجائر وقدم له واحدة منها، فرح أحمد بتلك السيجارة، فمنذ نصف ساعة لم يتذوق لذة السجائر، كان أيهم ينظر الى الطاولة الخشبية

_ ما هذا الكتاب، منذ متى وأنت تقرأ الكتب يا أحمد

احمر وجهه، وكأنه كان يتمنى الا تقع عين اخيه على الكتاب ليتجنب ذلك الإحراج الذي سيقع به

_ إنه هدية من ماريا

حرك ايهم جسده واقترب من أخيه

_ ماريا، الفتاة الجميلة، اليس كذلك

اجابه وهو يراقب ارتباكه وتوتره

_ نعم، فهي تحب القراءة

اعتدل أيهم في جلسته، اعاد علبة السجائر الى جيبه وبدا انه قرر إنهاء الزيارة

_ يبدو انك ستعتاد على قراءة الكثير من الكتب يا أحمد ..

اعاده صوت الجرس الخارجي الى وعيه مجدداً، يبدو أن هدى وجوليا قد عادا الى المنزل، مسح قطرات العرق المتجمعة على جبينه بواسطة منديل ابيض، وعندما لاحظ وجود الكتاب على الطاولة الخشبية حمله بيده والتفتت يمنة ويسرة، ووضعه تحت اللوح الخشبي اسفل فراشه وكأنه يخفي اداة جريمة

_ عندما يرحل أخيك، ينكسر في داخلك شيء لا يجبره تعاقب الأيام، تحتاج في نسيانه الى قوة تتجاوز قوة البشر، تراه في كل ذكرى جميلة، وفي كل حديث كان يفضله، وفي بعض الأحيان تلتقيه في يقظتك، تذهب اليه او يأتي اليك، أو تتواعدان في مكان ما للتبادلان بعض الاحاديث، ويحصل ان تراه في احلامك المتكررة، تضحكان، وتبكيان، وعندما تستيقظ تسارع الى تذكر تفاصيل ذلك المنام خوفاً من نسيانها ...

_ كيف حالك يا احمد، تذكر موعد فك الجبيرة غداً عند الثانية عشر ضهراً، سوف ارافقك الى المستشفى، ليلة سعيدة

عاود قراءة رسالة ماريا عدة مرات قبل ان يحل الظلام ....

٤

مدّت الشمس جدائلها الذهبية، وحملت السماء في صفحتها بضعة سحُبٍ متناثرة منبئةً بيومٍ دافئ، وأعلن صوت المنبه عن حلول التاسعة، وهو الوقتً الذي اختاره احمد لبداية يومه .. فتحَ عيناه فور رنين المنبه، بالكاد تحصّل على سويعات قليلة بعد أن قضى ليلته يفكّر بموعده مع ماريا، ولأول مرة شعر بانه يود اختيار ملابس خاصة لتلك المناسبة، فتح خزانة الملابس واخذ يقلبها، يرتدي بعض منها وينتقل الى المرآة، ليراقب مظهره النهائي، استقر رأيه على قميص اسود اللون تتخلله خطوط ذهبية وسوداء متداخلة

- صباح الخير يا احمد، اخيراً ستتحرر من قيدك هذا يا اخي

التفت الى ريان، وسرح بأفكاره لثواني قليلة، اجابها

_ أجل، صحيح

- الإفطار جاهز على الطاولة، سأذهب للتبضع ولن أتأخر.

قالت ذلك وهي تتجه الى الباب الخارجي

حرّك رأسه بامتنان واهداها ابتسامة لطيفة، اعاد القميص الى الخزانة وتوجه الى فناء المنزل

تناول إفطاره بشهيةٍ غير معتادة، حتّى أنه نسي إدمانه على السجائر، ينظر الى عقارب الساعة ويركز عينيه على الرقم اثني عشر

_ اللعنة، لا تزال هنالك ساعتان على الموعد

في مكانٍ ليس بالبعيد عن أحمد..

وقفت امام مرآتها تنظر الى هيئتها قبل أن تتخذ قرارها النهائي، جربت عدة انواع من الملابس الكثيرة التي اشترتها مؤخراً، وكانت النتيجة ملابس مرمية في كل مكان وفوضى عارمة تحت قدميها ...

وضعت شالها برتابةٍ للمرةِ الخامسة

_ كلّا، يبدوا مُبتذلاً

رن هاتفها فالتقطته من على الطاولة، جاءها صوت رفيقتها إيمان

- صباح الخير يا ماريا، هل غادرتِ المنزل ؟

- كلا

- جميل، انا في الخارج افتحي لي الباب

سرت ماريا بقدوم صديقتها إيمان التي تقيم في الجوار، دائماً ما تحضر في الوقت المناسب، فهي بحاجة ماسة الى استشارتها في اختيار الملابس المناسبة، فهي تعمل بمحل البسة ضخم وسط العاصمة وهي بارعة في هذا المجال

نادت والدتها بعد أن سمعت وقع خطوات ابنتها

_ ماذا هناك

- إنها إيمان، سوف نذهب الى العمل سوياً

وجدت سوسن في طريقها الى الباب واشارت لها بالعودة، فتحت لها الباب وادخلتها الى غرفتها سريعاً

- تعلمين أنكِ صديقة رائعة ؟ دائمًا ما تظهرين بالوقت المناسب

كانت إيمان مستغربة من كلام صديقتها، كما انها لم تجد تفسير للفوضى التي تعم المكان، ولا الى للطريقة التي ادخلتها فيها الى غرفتها

- ما الأمر

ضحكت ماريا ضحكة طويلة ثم تداركت

- كلّا، إنها مقابلة عمل بغاية الأهمية لدي، اريد مساعدتك في اختيار الملابس

رغم أن الإجابة لم تقنعها تماماً، فهي تعلم بأن ماريا لا تحتاج الى عمل، فهي تنتمي الى اسرة ثرية، الا انها فضلت عدم الكلام واحراج صديقتها، اخذت تقلب بين الملابس وتطابقها، ثم تعاود النظر الى جسد ماريا والى المرآة، وبعد وقت قصير اضافت إيمان أخر لمساتها على إطلالة صديقتها، معطفٍ رمادي طويل لا يتناسب مع الطقس المشمس لهذا اليوم، ولكنه يحقق الغرض في ظهور الفتاة بمظهر مثالي، واختارت لها بنطالٌ أبيض وقميصٌ صوفي يحمل لون السماء

اخذت تحتسي قهوتها وتنظر اليها كمّن سجّل نصرًا كبيراً، تذكرت

- أوه، انظري إلى الساعة، عليّ الذهاب للحاقِ بالعمل

هزت ماريا رأسها

- اجل، أنا أحتاج الخروج الآن أيضًا، سوف اوصلك إلى هناك ..

٥

الساعة الحادية عشرة صباحًا

ضغطتْ ماريا على الجرس المزعج، ليُفتَح الباب على الفور كأنما احدهم ينتظر خلف الباب مباشرة، ابتسمت ابتسامة بلهاء دون أن تتكلم حينما رأت أحمد بهذا المظهر

_ يبدوا انه يجيد اختيار ملابسه، الأسود يليق به ويجعل منه احمد آخر، بعيد عن ذلك الذي صدمته بسيارتها بادئ الأمر ..

فكرت في ذلك وهي تنظر اليه، استمر الصمت للحظات قبل يكسره احمد

-صباح الخير يا ماريا، شكراً على حضورك، متأسف جداً ل...

وجهت له نظرة حادة مفادها انها لا تود سماع المزيد من هذا الكلام المزعج، والذي اعتادت على سماعه في الفترة الأخيرة منه ومن رياه ، استدرك أحمد

_ حسناً، تفضلي الى الداخل ريثما انتهي من اعداد نفسي

وكأن المكان أُعد مسبقاً لاستقبالها، فنجان كبير من القهوة الساخنة يتصاعد منه البخار، وبعض قطع البسكويت المصفوفة بعناية في طبق التقديم

_ مرحباً يا ماريا

التفتت الى صوت هدى، كانت تعاني من انعكاس اشعة الشمس على عينيها الذابلتين، وبدا انها استيقظت لتوها، اقتربت منها وقبلتها

_ صباح الخير يا حلوتي، اين جوليا ؟

زمت الطفلة شفتيها واخذت تفرك عينيها و تبحث عنها في الأماكن التي تفضل جوليا التواجد فيها، بحثت قرب شجرة التين الكبيرة، والتي تشكل اوراقها المتساقطة وجبة شهية لجوليا، ولكنها لم تجدها، نظرت تحت الكنبة حيث تبقى فترات طويلة، لا شيء

خرج احمد من غرفته وهو يحمل صندوق كرتونياً، وضعه بالقرب من نافورة المياه وانضم الى ماريا ممسك بفنجان القهوة الساخنة، كانت جوليا داخل الصندوق، ادخلت راسها

داخل صحن ممتلئ بقطع الخيار وفوقها اوراق اشجار مبللة، حملتها بيديها وعادت الى غرفتها

_ انها لطيفة

اهتز فنجان القهوة بعد أن فاجئها صوت أحمد، اجابت وهي تنظر اليها

_ اجل، لطيفة وجميلة أيضاً

تبادلا بعض الاحاديث الجانبية، نظرت الى ساعتها واخبرته بأنه يتوجب عليهم المغادرة، فلم يعد هنالك متسع من الوقت، ساعدته في النهوض والتوجه نحو السيارة .

ساد الصمت لبضع دقائق بعد ان تحركت السيارة نحو المستشفى، كان أحمد يراقب كل شيء من خلف اللوح الزجاجي بعد انقطاع طويل، طلبة فارين من مدارسهم ويجرون خلف كرة قدم، بائع خضار متجول يجر عربته بكلتا يديه ويصرخ بأعلى صوته معلن عن وصوله، اعتاد على المرور بتلك الشوارع والحارات مشياً على قدميه كل يوم، وفجأة لاح له شيء في نهاية الشارع، طلب من ماريا التوقف

اخذ يقرأ الكلمات التي اعادته الى ما قبل ذلك الحادث

" مقهى السعادة "

وأخذ يجول ببصره داخل المقهى، عادت به الذكريات الى الأيام التي كان يمضيها بين رواد ذلك المقهى البائس، سامر يتنقل بين الكراسي بانسيابية معتادة، دون التحدث الى الزبائن، والسيد عبد الرحمن يتحدث الى رجل تبرع هذا

اليوم بالاستماع الى قصصه الكثيرة، لم يتغير شيء داخل المقهى، وكأنه غادره البارحة، تساءلت ماريا

_ أحمد، ماذا هنالك

تراجع الى الوراء ونفث نفس عميقاً، اجاب بلهجة مستسلمة

_ لا شيء، تابعي المسير

ازداد فضولها بعد ان سمعت اجابته ولكنها فضلت التريث قليلاً واتاحة المجال لأحمد كي يلتقط انفاسه، كانت متأكدة بأن ذلك المقهى الصغير له قصة طويلة ...

فتحت له باب السيارة، وضعت يده حول رقبتها وساعدته على المشي حتى باب غرفة الدكتور، كانت المستشفى تعج بالمرضى بالمراجعين والأطباء، ينبعث منها مزيج منفر من روائح ادوية والمعقمات، وروائح اخرى كثيرة، توجهت به الى قسم الأشعة بناء على طلب الممرضة المختصة، لم يتطلب الأمر كثيراً من الوقت، فقسم الأشعة كبير ويستوعب جميع المراجعين

اخرجت ماريا ورقة بيضاء صغيرة واعطتها لموظفة الاستقبال، وكانت فتاة في مقتبل العمر، يبدوا انها اختيرت بعناية لهذا المكان، فبالإضافة الى جمالها الساحر فهي تجيد التعامل مع كثرة المراجعين وضغط العمل والجميع يحصل على اجابة مع ابتسامة لطيفة، وبدا انها تعاني من صعوبة في لفظ حرف الراء بالشكل الصحيح، نظرت الى الورقة ورفعت سماعة الهاتف، حركت شفتيها ببضع كلمات متعمدة إخفاض صوتها

_ حاضر دكتور

اعادت لها الورقة مع ابتسامة لطيفة

_ الدكتور بانتظاركم، يمكنكم الدخول الأن

كان الدكتور امين يجلس خلف منضدته، يمسك بقلم ويكتب على احدى المصنفات الكبيرة، الغرفة دافئة بشكل مبالغ فيه

حياهم ببضع كلمات لبقة ودعاهم للجلوس

_ تبدوا بصحة جيدة يا أحمد

ابتسم أحمد محاولاً إيجاد الرد المناسب لذلك، اجاب وهو ينظر الى ماريا

_ في الحقيقة يعود الفضل بذلك الى ماريا فهي من ساعدتني في الأيام السابقة

تحدث الدكتور امين بلهجة هادئة

_ اجل، النساء يجدن الاهتمام بالآخرين حتى ولو كان ذلك على حساب راحتهم، دعنا نتحقق من الأمر

ارتدى نظارته ذات العدسات الصغيرة والشريط الطويل واخذ يتفحص الصورة السوداء، حملها الى اعلى وجعل ضوء الغرفة خلفها حتى يتسنى له رؤية تفاصيلها الدقيقة، وبعد عدة لحظات اعلن الدكتور

_ يبدوا ان ماريا قد قامت بمهمتها على اكمل وجه، القدم سلمة تماماً ولا حاجة للإبقاء على الجبس، هيا بنا، سأرافقكما إلى القسم الخاص لنزع الجبس .

وفي غضون عشر دقائق كانت قدم أحمد حرةً ويستطيعُ المشي عليها مع بعض التعليمات التي أشار إليها الطبيب أمين في النهاية، وقبل أن يغادرا المستشفى اقترب منها الطبيب امين، وكان ينظر إلى قسمات وجهها نظرة غريبة

_ ماريا، هل تعانين من شيء ؟

استغربت ماريا سؤال الطبيب المفاجئ واجابت

_ كلا، سوى من بعض الصداع المألوف

_ هل انتِ متأكدة ؟

تذكرت ماريا ذلك الألم الذي ظهر بشكل مفاجئ صباحاً، والذي اصاب رأسها، ثم تلاشى وترك خلفه صداع خفيف، لم يكن هناك ضرورة لإخبار الطبيب بذلك، اكدت له بأن لا شيء يدعو للقلق، تشكرته رفقة أحمد على مجهوده في مساعدتهم، وانصرفا إلى الخارج .

أدارت ماريا محرك السيارة ونظرت إلى أحمد بابتسامةٍ عذبةٍ

_ سأوصلك إلى المنزل واتابع طريقي نحو دار الأيتام

٦

تحركت السيارة في طريقها نحو منزل أحمد، وكان يختلس النظر إليها من حين إلى آخر، شعرت ماريا بذلك، واخفت ابتسامة كانت ستظهر عندما تلاقت نظراتهم، وصلت السيارة إلى مكان قريب من ذلك المقهى مجدداً، وسرعان ما تغيرت ملامح أحمد، لاحظت ذلك على الفور

_ أظنُّ أنني سأتجرأ وأسالك عن قصةِ هذا المكان .

صمت للحظات

_ سوف اخبرك، ولكن في الداخل، ما رأيك

وافقت على الفور، ثم دخل أحمد وماريا من الباب الرئيسي، واثار دخولهم الى داخل المقهى زوبعة من الأسئلة والنظرات، لم يعتد رواد المقهى على دخول الفتيات، كانت ماريا تنظر الى كافة ارجاء المقهى، بينما شعر أحمد بأن هناك رواد جدد لم يكن يعرفهم، لم يكن المقهى يعج بالزبائن كما هو حاله منذ تأسيسه، اشار لها

- تفضلي بالجلوس، سأطلب القهوة، انهم يجيدون صنع القهوة هنا

_ حسناً، كما تريد وكذلك فان القهوة مناسبة لهذا المكان، إنه هادئ جداً، بل هناك وصفٌ أعمق قرأته في روايةٍ ما ... أجل إنه يعترف بالعزلة وبالانخراط في الذات .

_ هذا صحيح يا ماريا، لطالما اعترف بآلامي هنا في هذا المكان، دون أن أعلن ذلك، لم يبخل علي بما احتاجه من هدوء وسكينة، كان ملاذي الوحيد لأكون أنا وحزني معا نشرب ذات الكأسِ

صمت للحظات وتابع حديثه وهو يحاول اختيار الكلمات المناسبة

اقترب منهم سامر وهو ينظر الى الفتاة الجميلة بعينين لامعتين، تحدث بأسلوب لبق ومهذب

_ طاب يومكم، لقد اقلقنا غيابك يا احمد ، وكنا نريد الاطمئنان عليك انا والسيد عبد الرحمن، ولكننا لم نجد سبيلاً لذلك

ابتسم احمد واجابت

_ شكرا لكم، ولكنني واجهت حادث سيارة ادى الى كسر ساقي وأنا الآن على ما يرام

_ حمداً لله على سلامتك يا احمد، سائقي السيارات في هذا البلد متهورون، لا علم لي بالطريقة التي يتم منحهم فيها شهادات قيادة، لذلك على الجميع توخي الحذر امام هؤلاء المجانين، حمداً لله على سلامتك يا احمد

ثم مضى ليستقبل احد الزبائن الذين دخلوا للتو

نظر احمد الى ماريا التي كانت تغط في نوبة ضحك شديدة، وبعد مرور لحظات من الصمت تحدث احمد

_ لابدّ أنك بتِّ تعلمين بذلك الحادث المؤسف الذي تعرضت له اسرتي، وما آل إليه حالنا منذ ذلك الحين

قاطعته ماريا

_ متأسفة لذلك، أعلم أنه لا كلمات يمكنها أن تخيطَ جرحاً نزف لسنوات طويلة، ولكنها ليست النهاية يا احمد، اليس كذلك ؟

_ نعم، هذا صحيح

احضر لهم سامر فنجانين من القهوة الساخنة، الى جانبها كأس ماء ومنفضة سجائر

عدَّل أحمد من جلسته وأخرج علبة السجائر وسمح لنفسه بتدخين أولى لفافاته هذا الصباح، تابع حديثه عن ذلك اليوم، وسرد لها تفاصيل تتحدث عنها ريان، وربما لا تعلم بها حتى الأن، كان التركيز على اللحظات الأخيرة التي كان فيها أيهم يحدثه عن عيادته التي يحلم في أن يفتتحها يوم ما، وكان يحلم أن يصبح طبيباً في يوم ما، حتى أنه طلب من الجميع أن يطلقوا عليه لقب " الطبيب " منذ أن كان في الحادية عشرة من عمره، اظهرت ماريا تعاطفها الكبير مع حديث أحمد، ولكنها كانت تنتظر هذه اللحظة التي سيأتي فيها الكلام عن ذلك الحادث، حتى تتمكن من مساعدته في الخروج من تلك الحالة

_ استمع إلي جيداً يا أحمد، أنا وأنت نعيش الحالة ذاتها، وربما كان هذا قاسم مشترك يجمع بيني وبينك، أنا فقدت والدي، وأنت فقدت عائلتك، نعم، ذلك مؤلم حقاً، كنت فيما سبق، أفعل الشيء ذاته، لا أخرج من المنزل، ولا أتحدث مع أحد، ولكن عملي في دار الأيتام مؤخراً منحني الكثير

استغرب أحمد

_ كيف ذلك

تابعت ماريا

_ هناك، في دار الأيتام، وجدت اشياء افتقدتها مؤخراً، ومن أهمها، حُب الحياة، والسعادة الكبيرة التي أحصل عليها عند مساعدة طفل، والتسبب في ابتسامته، حسناً، لا اطالبك في العمل في دار الأيتام، ولكن هناك الكثير من الأشياء يمكنك القيام بها، وستكون في النهاية قادراً على تجاوز كل الصعوبات، وتذكر جيداً، إن نجاحك وسعادتك، مرتبطة بسعادة من فقدتهم وهم هناك، في العالم الآخر .

لمعت عينا أحمد، وكأن صخرة كبيرة ألقيت في مياهه الراكدة، تذكر أيهم وحديثه بنفس الطريقة التي تتحدث بها ماريا، وبشكل مفاجئ، تسللت يداها ناعمتان إلى يده، وضغطت عليها بحنان، تحدثت ماريا

_ هذا ما سيحصل يا أحمد، الحياة ستمضي على أي حال .

ابتسم لها، واخرج سيجارة اخرى واشعلها، أخذت ماريا ترتشف القهوة الساخنةَ وتتفحصُ بدقة المكان حولها وتحاولُ اختلاس السمع في بعض الاحاديث التي كانت تدور حولها .

قاطع شرودها أحمد

_سأحدثك عن رواد هذا المقهى

كانت تريد ذلك، خاصة مع شعورها بأن كلماتها قد حققت نجاح كبير، بدأ أحمد يسرد قصص كل منهم ويلاحظ اختلاف تعابير وجه ماريا البريء بين حزن وتعاطف وشفقةٍ ظاهرة، فلكل منهم قصة مختلفة، وبعد مرور نصف ساعة من الحديث لاحظ تأثرها

_ ما رأيك بأن نغادر الآن، سأطلب الحساب .

_ حسناً أفضل ذلك أيضا .

الفصل الثالث

١

مرت عدة ايام على نهاية الامتحان الدراسي، وكان من المقرر أن تقوم ماريا بمرافقة والدتها في رحلة الى بيروت لعدة ايام، وهذا ما كانت تفعله السيدة خلود في نهاية كل عام، الى أن ماريا رفضت أن ترافقها، رغم محاولات السيدة خلود لمعرفة السبب وراء رفضها، الا انها لم تفلح في ذلك، ولم تجد تفسير لغياب ماريا وتأخرها المتكرر ...

كانت السيدة خلود في غاية القلق لتأخر ابنتها، رغم أنهم من عائلة لا تضع قيوداً على تجوال أفرادها، لكن قلق الأم على ابنتها الوحيدة لم يَحُلْ دون ذلك .

أمسكت السيدة خلود جهازها المحمول وبادرت بالاتصال بابنتها

_ مرحبا ماريا، أين أنتِ ؟ لقد تأخرت كثيراً

_ آسفة أمي، لم أنتبه للوقت سنتكلم عندما أصل، أنا في الطريق .

أقفلت السيدة خلود السماعة وجلست على إحدى الأرائك الجلدية السوداء، فبتنسيقٍ مخمليٍّ وُضِعَ طقمٌ كاملٌ منها في غرفة استقبال الضيوف، لتعطي طابعاً فريداً من البذخِ

المفرط، وطغى على الأثاث اللون الرمادي والأبيض، ليعطي هيئة إحدى القصور الرومانية، وساهم في ذلك وجود بعض المنحوتات وأعمدة مزخرفة في كل زاوية .

أرخت جسدها وتنهدت، وهمست في ذاتها بأن تكون ابنتها على ما يرام وألا كذب يشوبُ كلامها .

وصلت ماريا وأشارت إلى العم خالد بفتح البوابة الحديدية الضخمة، دلفت نحو المَمر الأمامي للباب المحاط بأشجار الزينة، وزهور النرجسِ المنسقةِ بطريقة مثالية، وكان للحديقةِ ساحةٌ واسعةٌ يتوسطها نافورةُ ماءٍ، وعلى الجوانبِ أسدين من الحجارةِ يخرجُ من أفواهها الماء .

وسارعت سندس الى فتح الباب الداخلي لماريا

_ أين هي أمي ؟

_ بانتظارك في غرفة الاستقبال آنسة ماريا .

لم تنتظر حتى تعلق معطفها بل أسرعت باتجاهِ القاعة الكبيرة، نطقت بتلكؤٍ ظاهر:

_مرحبا أمي، لقد عدت، وقبلتها على جبينها، وجلست الى جوارها

_ أمي أريد أن اتكلم معك بأمر هام

تغيرت ملامح السيدة خلود وأحست بخوفٍ يلفُ معالمها

_ ماذا هناك ؟ هيا أخبريني ؟؟

_ منذ شهر مضى صدمت شاباً بسيارتي بغير قصد، وتسببت له بكسر في عظام الفخذ، ولكنه كان حادثاً بسيط،

ومنذ ذلك اليوم وأنا أعتني بحال ذاك الشاب حتى تعافى تماماً، انتظرت حتى انتهت عملية شفائه تماماً حتى اخبرك، لكي لا تقلقي

لم تعلم السيدة خلود ما الذي يتوجب فعله، بين غضب وخوفٍ، وقلق من حديث ابنتها، بادرت بتوجيه وابلٍ من الأسئلة التي لم تنتهي لماريا .

_ اصبحت اتردد كثيراً على ذلك المنزل، حتى أن علاقة قوية جمعتني بريان وبطفلتها

تعلم السيدة خلود بأن ابنتها من الصعب أن تنخرط بسهولة في جوٍ غريب، وضعت يديها على رأسها لتشير بأن موجةَ صداعٍ بدأت تعتريها .

أودعت في جعبةِ ماريا بضع نصائح، وأخبرتها بأنه يتوجب عليها أن تنتبه الى نفسها وأن تترك عملها في دار الأيتام وتنظم اليها في ادارة الاعمال التجارية الضخمة

تنهدت ماريا

_ حسناً سأفعل قريباً

قالت ذلك قبل أن تغادر الى غرفتها ....

أحست السيدة خلود بضيقٍ بعد حديثها مع ابنتها، ولاسيما أنها أرملةُ رجلِ أعمالٍ مشهور ترك لها أعمالاً تجاريةً ضخمة، وتتمتع عائلتها بشبكة علاقات قوية داخل البلد وخارجه، ولكن ماريا ..

لازالت مصرة على أن تعيش بطريقة تخالف ما تسعى اليه والدتها، حتى انها لا تفضل الجلوس مع صديقاتها وتتهمهم

بأنهم متملقون ويحبون المظاهر، وهي لا تفضل هذا النوع من الأشخاص ...

طلبت من الخادمة أن تحضر لها فنجاناً من القهوة وأخرجت سيجارةً من علبةٍ خشبيةٍ خصصت لذلك، وأيضاً علبة الكبريت وبدأت بالتدخين، لم تكن من عاداتها المستمرة أن تدخن هكذا ولكنها كلما شعرت بضيق وهمومٍ وذكرياتٍ حيةٍ تتسلل نحوها تشعل السجائر، وكانت حريصةً ألا تشاهدها ماريا على هذه الحال

كان الجو مناسباً للجلوسِ على الشرفة المطلة على الحديقةِ، السماءُ صافيةٌ مرصعةٌ ببلوراتِ النجوم التي تخلبُ العقلَ، وعلى غفلةٍ، أطاحت بها الذكرياتٌ لطفولة ماريا، حيث كان يسهل التعامل معها، كانت طفلة هادئة وجميلة ويحبها الجميع، تساعد الخدم في اعمال المنزل، واخبرتها معلمتها بأنها توزع الاطعمة التي تحملها الى المدرسة على مجموعة من الاطفال الفقراء، وفي احد الأيام عادت الى المنزل وهي ترتدي قميص برتقالي وهي في غاية السرور، وعندما سألتها عن ذلك اجابت بأن ادارة المدرسة وافقت على طلبها في المشاركة ضمن فريق الخدمات الذي يعمل على تنظيف المدرسة في أيام العطلة

كان والدها يشجعها على ذلك، ويقدم لها ما تحتاج من دعم في قراراتها، وكانت تحرص على أن لا تتخذ أي قرار الا بعد مشاورته في الامر

لم يكن يرضيها ذلك، وكانت تمنعها من القيام ببعض النشاطات، وتجبرها على الجلوس اثناء زيارة اصدقاء

العائلة، وتطلب منها تكوين صداقات مع اطفالهم، وهي دائماً ما ترفض ذلك، تعترف، لقد كانت تحب والدها لهذا السبب، لأنه منحها كل ما تحتاج، وكان يحب مشاهدتها وهي تساعد الآخرين، وقد اعطاها حرية كبيرة تحتاجها لتكوين ذاتها، مع الحفاظ على توجيهاته وملاحظاته من حين لآخر، في الوقت الذي كانت تنشأ بينها وبين ماريا خلافات كبيرة على هكذا تفاصيل ..

تذكرت يوم تخرج ماريا، عندما ذهبت الى قبر والدها تحمل شهادتها الجامعية، بكت كثيراً حتى جفت عيناها، وفي نهاية الجلسة امالت رأسها على جانب القبر وكأنها تحتضن والدها ونامت لعدة دقائق، ابتسمت عدة مرات اثناء نومها وحركت يداها الى الأعلى، عندما افاقت من نومها اخبرتها بأنه وافق على عملها في دار الأيتام .

تنهدت وأطفأت السيجارةَ بعد أن استهلكتها كاملة وقررت أن تذهب الى غرفتها ...

٢

جلس احمد الى طاولة بجانب النافذة بانتظار وصول ماريا، ووضع على الطاولة مغلف يحتوي على الرواية التي اهدته اياها ماريا منذ مدة، وقد قرأها مرتين، وبين صفحات الرواية وضع قطعة من الشوكولاتة البيضاء، والتي اكتشف مؤخراً محبة ماريا لها، ربطها بشريط احمر للزينة، وعلى الأرض وضع الغيتار الخاص به

كان الجو العام هادئا ولكنه لا يخلو من أصواتٍ للاعبي الطاولة، وبعض الأحاديث المتفرقة هنا وهناك، وبعد عدة دقائق من الانتظار لاح له طيف ماريا يقترب من الباب .

كانت تبدو كملاك، كل شيء فيها يشير إلى إفراط في الجمال والرقة والقوة وحتى العفوية، كانت بالنسبةِ له مزيج من كل ذلك .

_مرحبا أحمد، حيته بلطف .

_اهلا ماريا، تفضلي بالجلوس .

شكرته بابتسامةٍ وجلست .

تقدم نحوهما سامر بخطواتٍ سريعة

_ طاب يومكم يا سادة، ما هوا اختياركم لهذا اليوم

نظر أحمد إلى سامر واجاب

_ لندع الآنسة تختار

ابتسمت ماريا

_ أظنني أفضل القهوة .

أردف أحمد

_ وأنا أيضاً .

_ في الحال، طاب يومكم .

كانت الكلمات تعبث بجوف أحمد فمنذ وصول ماريا اجتاحه الصمت .

ماذا سأسألها، هيا يا أحمد لا تكن مغفلا، قاطعت صمته ماريا

_ بماذا تفكر يا أحمد، هل انت بخير ؟

أجابها بتلعثم

_ نعم أنا بأفضل حال .

.احست ماريا بأنه محرج قليل، فبادرت بالحديث عن دار الأيتام وعن مشاكل الأطفال التي لا نهاية لها، واخبرته بأنها تفكر في كلام والدتها منذ ايام بخصوص مساعدتها في اعمالها التجارية، لاحظت بأن اجاباته مفصلة ودقيقة، وجه لها بعض النصائح، وكان من اهمها أنه لا بد من أن يكون لها عمل خاص، أما عن دار الأيتام، فلا بأس بذلك، ولكن في اوقات الفراغ ..

كانت رائحة البن تعبق بالمكان بأسره عندما قدم سامر بفنجانين من القهوة إليهما، ولاحظ سامر تغيراً جذرياً بحالِ

أحمد وأنَّ حياةً ما تأججت داخله، وبدا ذلك ضاهر من خلال الابتسامة التي منحه اياها

_ تفضل يا أحمد، تفضلي آنستي .

تمنى لهم سامر يوماً طيباً وغادرَ المكان

بدأ أحمد بارتشاف القهوة الساخنة، ونظر إلى ماريا

_ ما رأيك بأن تتكلمي لي قليلاً عنك، حسناً يبدو أنك تعلمين عني الكثير ولكني بالمقابل جاهلٌ بأدنى تفصيلٍ عنك .

تنهدت ماريا وأزاحت خصلةً من شعرها عن وجهها لتضعها برفق خلف أذنها .

_ أجل، لك ذلك، رغم أنها ليست بالقصة او التفاصيل المشوقة .

سحبت فنجان القهوة باتجاهها ونظرت إلى أحمد، فتبدلَّ اللمعان في عينيها للامبالاة ظاهرة

_ لا أعلم من أين أبدأ، ولكنني درست إدارة الأعمال بناءً على رغبة واسنوا، تخرجت منذ اربعة سنوات، والدي لديه مجموعة تجارية كبيرة تركها لي ولوالدتي بعد أن توفي منذ خمس سنوات .

صمتت وأخذت باحتساء القهوة، تابعت حديثها

توفي والدي إثر جلطة دماغية، كان الأمر مفاجئاً بالنسبة لي، فقد كان صديقي، وكنت اشاركه كل شيء، وعلى الرغم من صغر سني الى انه كان يستشيرني في بعض الأمور، ترك رحيله فراغ كبير في حياتي

_ متأسف يا ماريا، يبدوا انني اثرت جرح قديم

_ كلا، اظن بأن ذلك قاسم مشترك بيني وبينك ، فكلانا يعيش الألم نفسه، لقد تعايشنا مع الأمر اليس كذلك يا أحمد

_ نعم، صحيح

تابعت حديثها

_ اعيش حياة هادئة بعكس رغبة والدتي، وليس لدي صداقات كثيرة، لدي صديقة مقربة واحدة اسمها سلام

قاطعها احمد

_ اصبحوا الأن ثلاثة صديقات سلام وريان وهدى

ضحكت ماريا

_ لست ذكياً كفاية، ريان وهدى اخوتي

كانا في معزلٍ عمن حولهم، يتكلم كلٌّ منهم عن آلامه وأوجاعه وعن سرائره الدفينة، كان لكل منهم جانبٌ يحتاجُ أن يسند بقوة، جزءٌ عارٍ يرتجفُ دون الآخر، مرت ساعتان على لقائهما، اقترب منها احمد واشار لها الى الحديقة المجاورة، ودون تردد اجابت

_ هيا بنا

مد أحمد يده إلى الحقيبة وأخرج جيتار، وبدأ بالعزف، كان الجو مثالياً لجولة عزفٍ على الجيتار، كان يعزف أنغاماً عذبةً تتدفق الى قلب ماريا مباشرةٍ، وكانت تنظر إليه بحب

لم يعد هناك وجود للمقهى ولا للشارع ولا للمارة حتى، كانا متحدين في عالم آخر يرقصان على اوتار الحب ....

٣

كانت الأيام تجري تباعاً، بين لقاءات ومكالماتٍ ومحادثاتٍ عبر رسائل الهاتف المحمول، مرت ثلاثة اشهر ووجود كل منهما في حياة الآخر يتأجج ليشعل نار حبٍ ولد من رحمٍ عقيم .

" يبدو أن المستحيلات هي أكثرُ ما يؤول إليه الممكن "

بدأ أحمد عملاً جديداً بأحد مصانع المدينة ريثما يتم الموافقة على عودته الى المعهد الموسيقي مجدداً، كما طلبت ماريا ذلك ...

كان أحمد منهمكاً بعمله، بينما أخذ هاتفه يرن، كانت النغمة مخصصة لماريا

_ كيف حالك يا حبيبتي

_ احمد، امي طلبت أن تتعرف إلى اسرتكم

لحظات صمت

_ احمد، هل تسمعني

_ نعم حبيبتي، أود ذلك بالطبع ولكن

قاطعت حديثه

_ لقد اخبرتك سابقاً بأن امي يهمها سعادتي فقط، وهي لم تمانع شيء ارغب فيه

_ أعلم ذلك، حسناً كما تودين

_ أحبك ، الى اللقاء

كان احمد يعلم بأنّ ارتباطه بماريا سيكون له عوائق شتى، نظراً للفارق الكبير من الناحية المادية والاجتماعية بينهما، ولكن ذلك لا يهم، فالفوز بفتاة كماريا ينسيه كل شيء، ومع ذلك كان يحس بخوف ما ينشبُ بصدره عندما يتطرق الحديث نحو أم ماريا .

خطرت له فكرة، إن عيد ميلاد هدى بعد يومين وستكون فرصة لتتعرف على عائلته، وعلى الفور تحدث مع ماريا بذلك وبدأت التجهيزاتُ لعيد ميلاد الصغيرة .

كانت ريان مهتمةً بأدق تفصيل وشاركتها ماريا بكلِّ شيء ..

_ هيا ماريا لنكمل وضع الزينةِ هنا، حثتها ريان.

_ حسناً ولكن أحمد لم يساعدنا بشيء هذا ليس عادلاً .

فأجابها بلهجة ساخرة

_ إنه عمل النساء .

ضحك الجميع وكانت هدى تلطخ وجه أحمد ببقايا الشوكولاتة بعد أن انتهوا من إعداد قالب كبيرٍ، يحمل عبارة

" هدى .. كل عام وانتِ بخير "

و بعد أن شارفت التحضيرات على الانتهاء استأذنت الجميعَ لتعود أدراجها نحو المنزل وتعود في تمام السابعة مع والدتها كما اتفقت معها مساء الأمس

كانت ماريا في أوجِ سعادتها، فزيارة والدتها لمنزل احمد تعني لها الكثير، احبته حباً كبيراً وكأن الكون فرغ الا منه، واخذت ترى في احلامها منزل يجمع بينهما، واطفال يحملون ملامحه ونبرة صوته

ابتسمت السيدة خلود وهي ترى سعادة ابنتها، لوحت للسائق بيدها تأمره بتجهيز سيارتها السوداء المعدة للمناسبات الكبيرة، وكانت تلك السيارة واحدة من بين عدة سيارات مميزة في كل البلاد ..

كان الطريق بالنسبة لماريا يطول ويطول، وشعرت بأنه أطول بكثير من المعتاد .

_ هنا من فضلك، أشارت ماريا للسائق .

تفحصت السيدة خلود الحي الشعبي الذي يقطنه أحمد، واخذت تنظر الى جموع الأطفال وهم يلتفون حول السيارة ويتهامسون فيما بينهم، يبدو أن هذه الأزقة الدمشقية أعادتها إلى طفولةٍ شقيةٍ كانت حينها احدى سكان هذه الأحياء القديمة، التفتت الى ماريا

_ أهذا هو المنزل ؟

_ أجل يا أمي، هيا بنا ..

رنت ماريا الجرس، ففتح أحمد الباب وقد غزت وجهه ابتسامةً عميقةً و ودودة .

_اهلا وسهلا، تفضلوا .

دلف الثلاثة نحو أرض المنزل الواسعةِ التي دئبت ماريا ورحمة في تزيينها، كان كلُّ شيءٍ دافئاً، بدءاً بالمنزل وانتهاءً

بحديث ريان وطيبة أحمد وبراءةِ الطفلة وسلحفاتها، كانت السيدة خلود تتحدث اليهم وتبتسم، واحست بالعلاقة القوية التي تجمع ابنتها مع تلك العائلة

_ الان ادركت سبب تأخر عودة ماريا المتكرر، لن الومها بعد اليوم

ضحك الجميع، واكدت لها ريان بأن ماريا اصبحت احدى افراد المنزل

اعلنت ماريا

_ والآن حان وقت توزيع الهدايا وسأحضر هديتي اولاً

كانت الهدية هي دميةً " دب العسل " وهو فلم الكرتون المفضل لدى هدى

قفزت الطفلة وأخذت العلبة من يد ماريا بحماس وفتحتها، كانت دمية كبيرة توجه لها ابتسامة لطيفة

_ جميلة جداً بل رائعة، شكراً لك يا ماريا

هتفت هدى

اما ريان فقد قدمت لها فستاناً ابيض تتخلله خطوط ذهبية وسوداء، بينما أحضر لها احمد ساعة على شكل ميكي ماوس، وكانت الصورة مطابقة تماماً لشكل الكنزة التي ترتديها، اما السيدة سارة فقد اهدتها طوق من الذهب، في وسطه وردة حمراء تعكس الأنوار

حملت الطفلة جوليا مع الهداية وذهبت بها الى غرفتها، وعلامات الفرح والسرور تعتريها، اقترحت ماريا

_ سأحضر القهوة

سارت باتجاه المطبخ، ولكنَّها أحست بألم يجتاحُ صدرها وأخذت تسعلُ بقوةٍ حتى انتهى بها الأمر جاثيةً على قدميها .

هرع نحوها الجميع، ناولها احمد كأس ماء، واخرجت والدتها منديل ورقياً ومسحت على وجهها

_ هل أنت بخير؟ سألها بقلق

اجابته بنبرةٍ مطمئنةٍ

_ شكراً لك، لا تخف سعالٌ عابر

كان الدمع يسيل من عينيها بشكل لا ارادي، والسعال لا يزال يهتاج أكثر فأكثر، وضعت المنديل على فمها وإذا بقطراتٍ من الدم ترشح منه .

كان هذا يحصل معها مؤخراً من حين لآخر، شعرت بقلق ولكنها أخفت المنديل خوفاً من أن تثير قلق من حولها .

_ تفضلي الماء

مدّ أحمد يده إليها وساعدها بإحضار القهوة، وقبل ان تغادر المطبخ سألها

_ ماريا ،هل انت متأكدة من انك على ما يرام

هزت رأسها واخبرته بأن نوبة السعال قد انتهت

وبعد احتساء القهوة اشارت لها السيدة خلود

_ لقد اسعدتني زيارتكم، وانا انتظركم في منزلي نهاية الأسبوع

ذهبت ماريا لإحضار معطفها

_أنا جاهزة أمي، هيا بنا .

كان كلٌّ شيءٍ يسير حسب الخطة التي وضعها الطرفين، وبدا أن الخوفَ الذي اربك احمد تجاه هذا اللقاء قد تلاشى كلياً ...

٤

أخذت قسمات الصباح مكانها في الأرجاء، يومٌ ربيعيٌّ كهذا لا يجب أن يفوت المرء فرصة الذهاب في نزهةٍ قصيرةٍ، أو حتى الاستيقاظ باكراً للاستمتاعِ بشمسٍ دافئةٍ يتخللها نسمات لطيفة تداعب الروح .

كان أحمد في هذا اليوم يشعر بنشاطٍ زائد، ورغبةٍ جامحةٍ في انتهاكِ روتين يومه، فالأيام القليلة الماضية كانت بمثابة فترة تحول كاملة تصالح فيها مع نفسه ومع الآخرين .

محاطاً بكمٍ هائل من الآلات حيث يمكن للضجيج أن يحدث ثغرة عميقةً في اوسط الرأس، يثابر أحمد لينجز أكبر قدر ممكن ليلتحق بماريا في فترة ما بعد الظهيرة، حيث وعدته بلقاءٍ مهمٍ بالنسبة لها .

في هذه الأثناء كانت ماريا في طريقها إلى المستشفى لتحصل على استشارة طبية من الدكتور أمين، فقد اجرت معه اتصال هاتفي ليلة الأمس واخبرته بما جرى، وعندما وصلت بحديثها الى قطرات الدماء، اخبرها بضرورة الحضور الى المستشفى للقيام ببعض التحاليل

كانت تمقت رائحة المعقمات والأدوية التي تطاردُ أنفها في لحظة وصولها المستشفى، سارعت باجتياز البهو لتصل إلى المصعد، ولحسن الحظ كان فارغاً، صعدت إلى الطابق الثالث حيث عيادة الدكتور أمين الجديدة

طرقت الباب بخفة

_ الدكتور أمين ؟

_ نعم، تفضلي ماريا

كان الدكتور أمين صديق قديم لوالدها وهكذا استمرَّ الأمر بعد رحيله، وهو الذي اشرف على رحلة علاجه الطويلة، ونتيجة لذلك نشأت علاقة قوية تجمع الأسرتين

جلست ماريا وأشار إليها بأن تنتظر ريثما ينهي كتابة أحد التقارير الطبية، وبذلك أخذت ماريا تجول بعينيها أرجاء الغرفة، كانت تحبذُ ذوق الدكتور في اختيار الأثاث ولا سيما طريقة تنسيق الرفوف واحتوائها على كمية كبيرة من الكتب

والمجلات الطبية، بل وان مكتبته الصغيرة كانت تحتوي على بعض الروايات التي لم تترجم بعد

رفع رأسه ونظر إلى ماريا وعمد إلى تدليك رقبته التي تخدرت بفعل الانحناءات والعمل المتواصل، نظر إليها وابتسامةٌ ودودةٌ تملأ وجهه .

_ اشرحي لي ما جرى بالتفصيل

_ حسناً، لا أعلم من أين أبدأ، ولكنني مؤخراً كنت أشعر بوهن عام، و ضيق في التنفس وتعب دون أدنى مجهود، وتنتابني نوبات سعال شديدة من حين الى آخر، وبعضها ينتهي بقطرات دماء تخرج من فمي

ارتابت ماريا من تبدل نظرات الدكتور أمين وأردفت

_ أهناك خطبٌ ما ؟

_ لا، لا شيء ولكن أظن أننا سنجري بعض الفحوصات للاطمئنان فقط، وتبدلت تعابيره لتوشي بشيء من القلق الظاهر .

نهض الدكتور أمين، وحمل بعض الأوراق وارتدى نظارته، أشار لماريا بأن تلحق به .

_ سننزل إلى المخبر هيا اتبعيني .

أومأت برأسها، وتبعته .

فتح الدكتور أمين باب المخبر و ألقى التحية على الطبيب المختص، وعرفه إلى ماريا ابنة السيدة خلود الذي أبدى اهتماماً خاصاً بوجودها .

_ هيا ماريا، سوف نحتاج الى اخذ عينة من الدم، انزعي المعطف وارفعي اكمام القميص

أخذت تتكلم معها الممرضة المختصة بينما تعدُّ الحقنةَ وشريطاً بلاستيكياً لأخذ عينة الدم .

أغمضت ماريا عينيها في الوقت الذي شرعت الممرضة بسحب الدم، شعرت بوخزٍ خفيف، وانتابها شعور بالغثيان بين الكم الهائل من الأدوات الطبية .

خرجت بعد ذلك بصحبة الدكتور أمين نحو قسم الأمراض التنفسية حيث سلف له بأن خبرها بحاجتهم لفحص الرئتين والاطمئنان على حالتها، على الرغم من أن ماريا لم تكن تمارس أي من العادات الغير صحية كأن تدخن مثلاً أو أن تشرب الكحول .

وبعد انتهاء الفحص السريري طلب من ماريا أن تسبقه إلى مكتبه حتى يحضر نتيجة التحاليل وتقرير الطبيب النهائي .

صعدت ماريا إلى المكتب و كانت تشعر بوخز خفيف بكامل جسدها، وكان هذا الشعور الذي ينتابها كلما شعرت بطالع سوء يقترب .

حاولت تدارك هذه المشاعر بإشغال نفسها بالبحث بين روايات الدكتور أمين، فوجدته مهتماً جداً بالأدب الفرنسي

على وجه التحديد، غارت بين سطور إحداها وشردت معها قليلا إلى أن قاطع استرسالها دخول الدكتور أمين .

- ما هي النتيجة ؟

أجابها بابتسامة

_ سوف تتأخر نتيجة التحليل لبعض الوقت، يمكنك المغادرة لمتابعة اعمالك، وانا سأخبرك بنتيجة التحليل حال وصولها الى مكتب ....

٥

دمشق / دار الرحمة للأيتام

انتهى احمد من عمله، والتقى بماريا تفرغت للتو والتحقت به، اقترحت عليه فكرة مرافقتها إلى مكان عملها في دار الأيتام، فوافق على الفور

_ ها قد وصلنا

أشارت ماريا لأحمد نحو دار الأيتام الذي تعمل به، كانت ماريا قد وعدته بزيارة الى مكان عملها، ولم تجد فرصة مناسبة اكثر من هذا اليوم الجميل

_ أردت أن أعرفك على عملي هنا، أحب هذا المكان بشدة، أشعر بأن الجميع هنا اسرتي

قالت ماريا موضحة.

فكر أحمد بمشاعر ماريا وبأنها ترى فقد والدها بهؤلاء الأطفال، وتذكر ما حلَّ بعائلته وراح بخياله لمكانٍ آخر بعيد عن ماريا وعن المكان بذاته، إلى طفولته ومنزلهم، رائحة والدته وصوت والده، ولعبه مع أيهم، كان كليهما مزيج من معاناة، نصفهم حي والآخر دفن مع من رحلوا، فالوقت يمر بنا ولكننا لن نتجاوز أبداً ما نقش على أرواحنا من ألم .

كان المكان نظيفاً ومنظماً، من الواضح أن إدارة الميتم مهتمة جداً وترعى أموره بشكلٍ جيد، كان كلُّ شيءٍ مرتب، نظافة الأطفال، اختيار ملابسهم بعناية، وجود قاعات خاصة للعب والطعام والدراسة، وراح ينقسم المبنى لقسمين، الأول خاص بالذكور والآخر بالإناث، ويشرف عليه العديد من العاملين يتابعون أمورهم بكل دقة وحذر .

اقتربت ماريا من أحمد وأشارت إليه بأن يتبعها، ودخلا بعد ذلك إلى إحدى الغرف التي تحوي اربعة أسرة .

_سأعرفك إلى صديقتي

همست له وهي تشير إلى فتاةٍ صغيرةٍ بشعر ذهبي يبدو أنها بسن الثامنة او التاسعة

_ماريا

صاحت الفتاة وقفزت فرحاً وارتمت بحضنها .

_ كيف حال صديقتي، همست ماريا بحب وقبلت بين عينيها، تحدثت مروة بحزن

_ اشتقتُكِ لك كثيراً يا ماريا، لم تزورينا منذ انتهاء الامتحانات

كانت ماريا قد انشغلت بأحمد في الآونة الأخيرة ونسيت التزاماتها، وهذا ما جعلها قليلة التردد الى الميتم

جلس أحمد إلى جوارهما وعرف بنفسه لمروة

_ أنا أحمد صديق ماريا الجديد، أيمكنني أن أكون صديقك أيضاً ؟

بدا أن مروة لم يعجبها الأمر فقررت أن تعبس وتلتزم الصمت فضلاً عن الإجابة، بينما شعر أحمد بمشاعر الطفلة حيث ظنت بأنه سبب انشغال ماريا عنها، و كان أحمد ينظر إلى ماريا بحبٍ مبالغٍ فيه وبشوقٍ يعبر قسماتِ وجهها، يتفحص بدقة تعابيرها وصوتها، حتى رائحتها التي أغوت كل جوارحه، كانت بمثابةِ نجاةٍ له.

كان حديثٌ حميميٌّ يدور بين مروة وماريا، كانت لهما ملامح الألم والفقد والحاجة ذاتها، هناك علاقة من نوع آخر بينهما، لم تكن صلة دم بل كانت أوجاعاً مشتركة .

أمضيا وقتاً طويلاً مع بقية الأطفال، وقدمت لهم ماريا المساعدة ولعبت معهم كعادتها وكان شريكها أحمد بكل هذا .

كان السيد عماد والد سلام، وهو مديرة الميتم، ودود جداً، ويحبذُ وجودَ ماريا الدائم بين الأطفال .

اتجه نحوهم وابتسم

_ مرحبا ماريا وأهلاً بك وبضيفك .

رد كل منهما التحية، وعرفته ماريا بأحمد وجلس الثلاثة يتحادثون عن أمور الميتم ومصادر ايراده وكيفية إدارته وتنظيمه .

وبعد انتهاء زيارتهم اوصلت احمد الى منزله، وما أن اغلق احمد الباب خلفه حتى سمعت صوت نغمة الرسائل، كانت رسالة من الدكتور امين، ضغطت على رز العرض واخذت تقرأ كلمات الرسالة، وما ان اتمت قراءتها حتى شعرت بضيق في النفس وانهمرت دموعها بغزارة ...

٦

أن يحلم المرءُ حلماً ممكناً فيتحول في وقتٍ لاحقٍ إلى مأساة، هذا هو الجحيم بذاته .

نحن نمضي ولكن أقدارنا يلفها الضباب، فالقادم مجهول، الحاضر لا يخلو من الغموض، كانت ماريا قد اخذت على عاتقها سعادة احمد، ففي اعماقها كانت تحس بأنه الانسان الذي يجب أن تهبه الحياة من جديد، كانت هذه الفكرة بالنسبة إليها كهاجسٍ لا يمكن أن يزاول تفكيرها، شعورها الباطن الذي يخبرها دوماً أنها ستكون ملاك أحدهم، وطنه وأسواره، كان يدفعها لسد أي ثغرةِ بؤس في حياة أحمد ...

اما الان، ها هي تمزق خريطةً قد رسمتها بكل حبٍ، ستعود أدراجها الى الوراء، ستعد خطواتها و وتمر بشريط الذكريات ذاك التي عاشته برفقة من تحب، وستضطر لإحراقه مع قلبها الذي أصابته الشيخوخة في سن العشرين ...

كان العم خالد كعادته يغفو تارةً ويصحو أخرى، وانتفض أخيراً عندما سمع صوت سيارة ماريا تقترب، فتح لها الباب الحديدي كعادته وألقى عليها التحية، ولكنّها لم ترد عليه، بدت له بأنها في عالم آخر .

فتحت باب غرفتها وخلعت ملابسها كمن يزيلُ أثقالاً عن جسدهِ، ارتدت ملابس نومها وجلست بعدها على السرير، التقطت هاتفها وبحثت في سجل الرسائل عن اسم أحمد ، وبدأت بالكتابة، كتبت ما قطع قلبها لأشلاء وحرق ذاكرتها، فاضت عيناها دمعاً وبللت شاشة الهاتف، كانت تشهقُ كمن يلفظ أنفاسه الأخيرة

وبعد أن انتهت من ارسال الرسالة قامت بإلقاء نظرة اخيرة على رسالة الدكتور امين

_ ماريا، انت مصابة بمرض السرطان، والمرض في مرحلة متقدمة، يتوجب عليك الحضور الى المستشفى في الحال، من الممكن تدارك الأمر

استمرت بالبكاء حتى فقدت أي قدرة على فتح عينيها، ذبلت ملامحها وخارت قواها وبدأت تسعلُ بشدةٍ ولم يخلُ الأمر في النهاية من حدوثٍ نزف فموي .

لجأت حينها إلى شرب الماء وإلى بعض المسكنات، كانت تشعر بأنها لن تعيش طويلاً وأن نصائح الدكتور أمين وكلامه عن العلاج كان محض مواساةٍ لا أكثر .

تدثرت بغطائها وبكت حتى انتهى بها الأمر بالنوم من شدة التعب .

٧

سأعطيكِ وعداً أبدياً .. لتكوني أنتِ الوحيدة التي أتجرأ أن أقطع معها وعداً في هذا العالم البائِس الذي يرفضُ كلّ الوعود .

جملة نقشت على
أحد مقاعد حديقة قديمة
في دمشق .

على صوات عراك هدى والسلحفاة، استفاق أحمد في اليوم التالي، يبدو أنَّه نام بعمقٍ في الليلة الماضية، كان الجو ربيعياً دافئاً في الخارج وقد نبأه بذلك خيوط الشمس الدافئة التي تخللت الستائر الرقيقةَ في غرفته، حرك أجزاء جسده وتمطى قليلاً ليشعر ببعض النشاط، ثم بدأ بترتيب أغطية سريره حتى انتهى، وفي ذلك الوقت تذكر أنه لم يحدّث ماريا منذ البارحة، التقط هاتفه المحمول ليطمئن عنها، وكانت هناك بعض الرسائل في البريد الوارد، لم يلقي لها بال

ضغط على زر الاتصال وهو يستعد لسماع صوتها الصباحي العذب، ولكنه لم يحصل على ذلك، بل ظهر له

صوت المجيب الآلي، استغرب ذلك وبدأ يحاول مراراً وتكراراً، ولكن لا نتيجة، قرر رؤية بريده الوارد فاستغرب وجود رسالة من ماريا تعود لليلة الماضية، فتحها ولكن صاعقةٌ ضربته من أعلى رأسه وحتى أخمص قدميه .

_" لا أستطيع تبرير موقفي ولن يمكنني ذلك، إنها لأنانية مني أن أتخذ قراراً كهذا، ولكنه الحل الوحيد، أنا وأنت لن نصلحَ أن نكون معاً، أرجو لك توفيقاً دائماً من كل قلبي، وأن تحقق كل ما يتمناه قلبك، سأدعو لك دوماً بكل خير وسأذكرك دوماً، أعدكَ بذلك ...

كانت هذه الكلمات الأخيرة لماريا، سقطت على قلب أحمد كحجارةٍ لفظها بركانٌ هائج، لم يصدق ولم يحتمل علقه تلك الكلمات، قرأ الرسالة مجدداً

_ لماذا ، ماذا ، اين

سقط الهاتف على الأرض، ووضع يده على رأسه واخذ يبكي، بعد أن كانت أمله الوحيد في هذه الحياة، ها هي تفلت يده و تتركه لتصبح ألمه الذي لا ينضب وجرحه العميق الذي سيترك ندباً .

فتح خزانته ولبس عشوائيا بنطالاً أسود ولم يعر انتباهاً لقميصه الذي نام به ليلة أمس، خرج من المنزل متجهاً إلى منزل ماريا، وعندما وصل حاول جاهداً الدخول ولكن العم خالد منعه من ذلك وأخبره بأنها أوامر الآنسة ماريا ولا يستطيع عصيانها .

جثى على ركبتيه عند المدخل، خانته الدموع وأنينه المنبعث من صميم خيبةٍ وقعت للتو، شعر بأن يده أفلتت في منتصف الطريق ليتركه تائهاً في صحراء قاحلة .

هذا ما فعلته به ماريا .

عاد أدراجه باستعمال احدى وسائط النقل العام، دخل غرفته مسرعاً، وجلس على سريره، وبدأت لفافات التبغ تنساب مع أفكاره واحدةً تلو الأخرى .

أيعقل أنَّ ما حدث حقيقة؟

هل حقاً ماريا التي كانت معه البارحة بأوج سعادتها تركته اليوم هكذا تائهاً في سحابةٍ من أسئلةٍ لعينةٍ لا جواب لها، كان صداعاً رهيباً يشق رأسه نصفين، ولوعةٌ تشطر فؤاده، حاله يرثى لها ولا شيء يمكنه أن يطفأ ناراً اشتعلت في أعماقه

مرت ثلاث ساعاتٍ على هذا الحال وأحمد بحالة صدمة كاملةٍ يدخن ويبكي بحرقةٍ، خائر الروح بعدما استنزف كامل قواه، كان يتمنى أن يكون كل ما حدث كابوس مزعج، كان يأمل ذلك حقاً، ولكنها الحقيقة التي لن يستطع تصديقها، لم يجد امامه سوى الغيتار، امسك بحباله واخذ يمزقها واحد تلو الآخر

بدأ القلق يفتك بريان حين شاهدته على هذه الحال بعينين حمراوين منتفختين، ووجهٍ فقد حيويته، كان شكله يدل على أنه عائد من حادث مروع فقد فيه احد اعضاء جسده ...

الفصل الرابع

١

مضى عام على هذا اليوم، كان ذلك العام طويل على كلا الطرفين، غادرت ماريا الى فرنسا لتخضع للعلاج لدى امهر الأطباء في العالم، كانت تتنقل وحيدة بين البيت الذي تقيم فيه، وبين المستشفى القريب من المنزل، تجلس على ضفة نهر السين وتراقب حركة الطيور وهي تنقض من الأعلى على الأسماك الصغيرة داخله، كان جسدها منهك القوى، بعكس ما اخبروها في المستشفى انها تتحسن يوم بعد يوم، فالألم لا يشعر به الا صاحبه، تتحدث الى ريان من حين الى آخر، وفي آخر اتصال جرى بينهما سألتها عن أحمد، لم تختلف اجابتها كثيراً، يعيش حالة سوداوية من العزلة المفرطة، يعمل اثناء النهار، ويسهر طوال الليل، ويحرق الكثير من السجائر، ولكن الشيء الجديد هذه المرة

_ لقد عاد ليرتاد ذلك المقهى البائس، ويمضي غالبية وقته هناك مع مجموعة من الذين ينتظرون حتفهم بفارغ الصبر.

كانت تجلس بانتظار صدور نتيجة التحليل النهائي، والى جانبها نسرين، وهي فتاة لبنانية تتقن اللغة الفرنسية، وكانت ترافقها اثناء ذهابها الى المستشفى لمساعدتها .

خرج الطبيب ونظر الى الفتاتين، تحدث الى نسرين وكانت نبرته مرتفعة، وبعد عدة لحظات سألت ماريا

_ ماذا هناك

كانت نسرين تشير لها بالتريث، وتستمع الى حديث الطبيب وتحاول الاستفسار اكثر، وبعد عدة لحظات نفذ صبر ماريا وتحدثت الى الفتاة مجدداً

_ ماذا هناك يا نسرين، اخبريني ارجوك

_ الطبيب يتحدث عن معجزة طبية حدثت للتو

_ ماذا ؟؟

_ نعم يا ماريا، انه يقول بأنه يريد إعادة التحليل مجدداً للتأكد من صحته

وبعد إعادة التحليل مرة ثانية تأكد الطبيب من صحته، حمل مجموعة الأوراق وسلمها الى ماريا وطلب من نسرين ان تترجم لها

_ إنني كطبيب عاينت حالات كثيرة مشابهة لحالتك يا ماريا، أؤكد بأنك لن تعيشي لأكثر من أسبوع، فالحالات المشابهة دائماً ما تنتهي بالموت، ومن النادر أن ينجوا اصحابها ويتابعوا حياتهم

ثم نظر الى مجموعة الأوراق وسلمها اياها

_ اما الأن، فقد وقعت معجزة طبية لا أجد اي تفسير لها، فهذا التحليل يثبت بأنك قد شفيت تماماً من المرض، وكأن التحاليل التي اجريناها سابقاً تعود لشخص آخر، حقاً لا يمكنني تفسير ذلك

ثم منح ماريا ابتسامة خفيفة

_ بإمكانك العودة الى المنزل في الحال ...

٢

كانت ريان تجهز الافطار كعادتها، ولكن أحمد في هذا اليوم لم يشعر برغبة في الذهاب للعمل وقرر أن يأخذ إجازة ليوم واحد من مالك المعمل الجديد الذي كان يعمل به مؤخراً .

رن هاتفه المحمول

_ مرحباً، انا سامر صاحب مقهى السعادة

استغرب احمد ذلك الاتصال، ولكنه اجاب

_ نعم

_ كنت اود الاستفسار منك، هل ستحضر اليوم الى المقهى، العم عبد الرحمن يود ان يتحدث اليك

_ نعم، سوف احضر بعد ساعة من الأن

اغلق الهاتف وعاد الى اشعال السجائر مجدداً وهو يفكر في ذلك الاتصال الغريب، ولم يخطر له أن يسأل سامر من أين حصل على رقم هاتفه، ارتدى ملابسه وغادر المنزل

وما أن وصل المقهى حتى لاحظ بأن بتغير جذري أصاب المكان، ذاك المقهى الذي كان لا صلة له باسمه أصبح مكانا يضج بالحيوية، للوهلة الأولى كانت لمسات ماريا الساحرة تطغى على المكان بأسره، كان خيالها النّدي مطبوعا على الوان الجدران الجديدة وشكل الطاولات يشبه رقصاتها الفاتنة، وتناسق الاغاني يوحي له بأنفاسها الدافئة، كان يشعر بأنه يراها الآن في كل زاوية وفي كل كلمة، في كل لون، وفي كل تفصيل ينبض بالحياة .

كان المقهى فارغ من زواره، حتى سامر لم يكن هناك، زم شفتيه مستغرباً وهو ينظر في كل مكان، سرت بجسده قشعريرة غريبة، ألف شعور ينتابه في هذه اللحظات ولا تفسير واحد على الاقل لما يجري .

وعلى حين غرة، باغته صوت أنثوي أثار جميع جوارحه .

-أحمد

التفت الى الخلف وعلامات الذهول على وجهه .

فستانٍ بلونِ الشمس، وقبعةٍ عمدت بها لتغطية جميع أجزاء رأسها، وعينين ذابلتين أحاطت بهما هالات السواد، وابتسامة تلونت بلهفة وشوق وحب والم، رغم أنها فقدت كثيراً من ملامحها، ولكنه كان صوتها الذي لن يخطئه بين جميع نساء الأرض، ونظرتها التي اغتالت كيانه .

كانت ماريا تقف على بعد بضع خطوات منه، اقتربت قليلا واخذت تنظر إليه متفحصةً تفاصيله من جديد

_ اشتقت لك كثيراً يا حبيبي

كانت الحروف ترتعش بين شفتيها، وتتثاقل الكلمات في جوفها، أيمكن لكل تلك المسافة ان تنطوي وأن يذوب جبل الجليد الذي خلفته ندوب الماضي وجروحه ؟

هذا ما كان يجول في خاطر ماريا عندما رأت نظرات أحمد ممتزجة بحب وعتاب وأسئلة لا نهاية لها .

اقترب منها أحمد، وأمسك بها بكلتا يداه، صرخ بأعلى صوته

أين كنت ؟ لماذا فعلت هكذا ؟ هيا أجيبي !

هل حقاً كنت تحبيني أم أنك كنت تتلاعبين بمشاعري، أم أنها كانت شفقة منك على حالي ؟

لم تجب ماريا ولو بكلمة واحدة، كان سيل الدمع المنهمر قد أغرق وجنتيها، جثت على ركبتيها أمامه وبدأت بالتحدث إليه وكلتا يديها على أذنيها حتى تتكلم دون أن تسمع أسئلته التي تغرز أنصالها في روحها تماماً، صرخت بوجهه

-تركتك كي لا تتعلق بجثة حية، بكيانٍ مهدد بالموت القريب، وبروح قد تفلت يدك وسط هذا الزحام في أي وقت

ثم نزعت القبعة التي تغطي رأسها، وكان شعر رأسها قد اختفى تماماً بفعل تأثير الجرعات الكيميائية التي تلقتها خلال فترة العلاج

صعقه المشهد وامسك بيديها وشدها الى الأعلى

_ ماريا ، ما هذا ...

٣

نعبرُ محطات الحياة على متن قطار أقدارنا، لكنَّ أحدهم يعبر بنا جميع المحطات دفعة واحدة، وحتى النهاية.

بعد مرور سنة

كان ماريا تمشط خصلات شعرها اللامعة بعد أن حظيت بحمامٍ صباحي منعش، ووضعت مشبك شعر عليه بتلات

الياسمين البيضاء، بعد تلك المعاناة عاد شعر ماريا لينبت من جديد، كانت طريقة علاجها واستجابتها له بمثابة معجزة طبية، لم يكن بالأمر السهل، ولكن الحياة قررت أن تبتسم لها هذه المرة

كانت منشغلة بتحضيرات الزفاف لصديقتها سلام، التحضيرات أكثر من رائعة، سلام تتلألأُ كنجمةٍ وسط الحضور، تقف إلى يمينها ماريا بفستانٍ أسود مع تسريحة تناسب شعرها القصير وحلق على شكل هلال صغير وعقد تزين بها عنقها الجميل، كانت كلتاهما فاتنتان تثيران الدهشة .

تركت ماريا صديقتها وقررت الانضمام إلى الحضور ليأخذ مكانها زوج سلام

وقفت في احدى زوايا الصالة برفقة احمد، كانا يراقبان الحفل ويتحدثان عن اعجابهما برقصة هدى الصغيرة وسط الجموع

كانا كطائران يحلقان في فضاء واسع، لا مكان بينهما للمسافات ولا للأشخاص، تلاشى الزمان والمكان، هو وهي فقط على أنغام قلبيهما .

النهاية

يبدو أن أحدهم لم يعد يريد الانتظار، بعد اسبوع تقرر زفاف ماريا وأحمد، وجرى الحفل في مقهى السعادة، ذلك المكان الذي اصبح الأن ينبض بالسعادة الحقيقية

سافرت ريان وهدى إلى زوجها في الخليج، ولكنها وعدت أحمد بأن تزوره بين الحين والآخر .

استطاع أحمد بتشجيع ودعم من ماريا بأن يتمَّ دراسته في معهد الموسيقى، وبدأ بإدارة مقهى السعادة ليصبح أفضل مقهى في منطقته، وأحد أركانه عازف الجيتار الرائع أحمد .

- أحمد ، غنِّ لي

- بعزف ساحر وبكلمات تخرج من اوسط الفؤاد ، غنى لها واحتضن كل منهما قلب الآخر وكيانه حتى النهاية ....

" انتهت "

شكر وتقدير

كان لابد أن تنتهي سطور حكايتنا بما تعتمله قلوبنا من شكرٍ وودٍّ لمشروع مِداد، لكامل الفريق ولمؤسسي عائلتنا التي تكبر يومًا تلو الآخر، التي احتضنَت مواهبنا وقامت على صقلها، كنتم خير الداعمين لنا، لا نضب إبداع مشروع مداد ولا جفّ حبر أقلامكم يا رِفاق!

عائشة الشيلابي

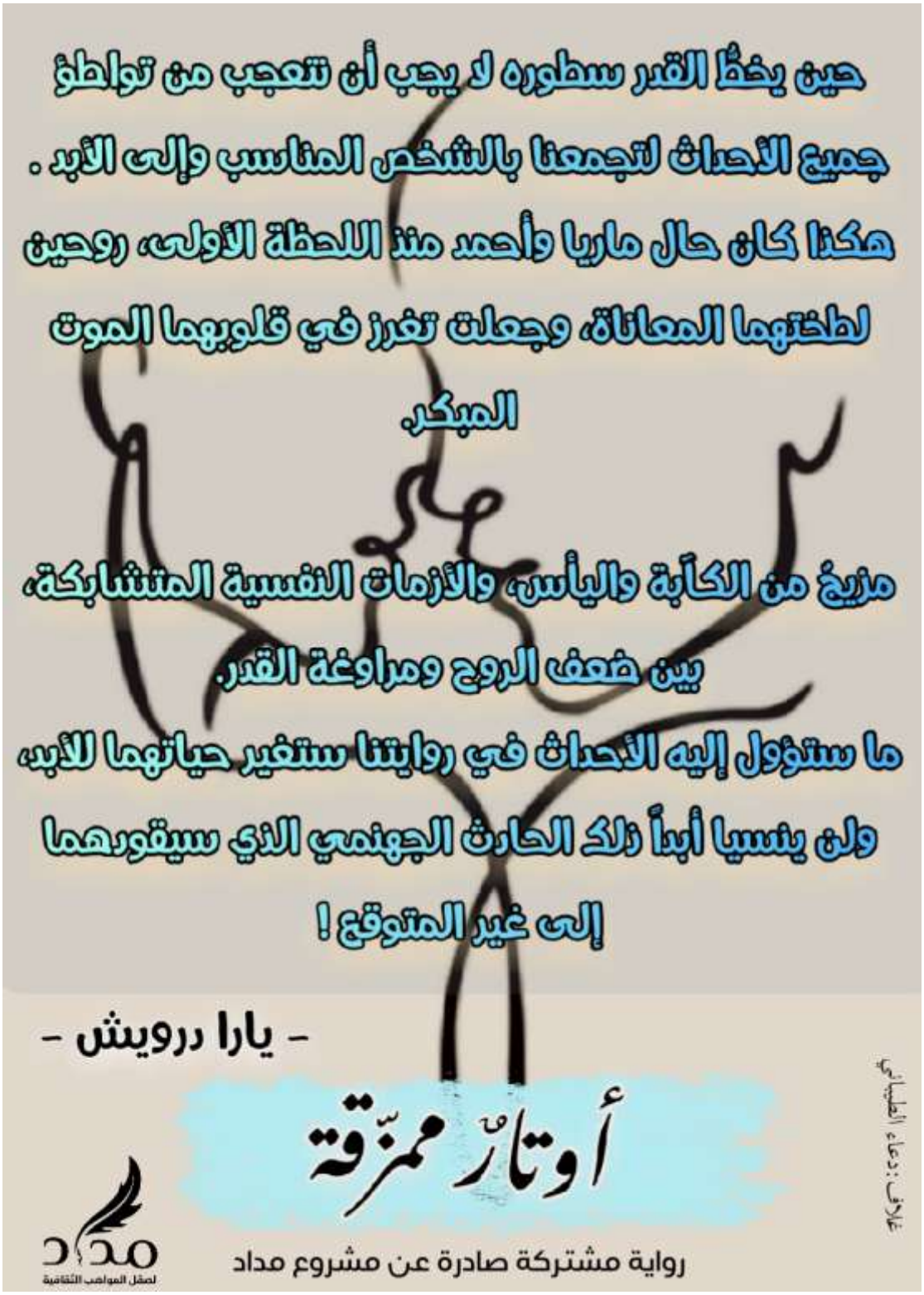
حين يخطُّ القدر سطوره لا يجب أن تتعجب من تواطؤ جميع الأحداث لتجمعنا بالشخص المناسب وإلى الأبد .
هكذا كان حال ماريا وأحمد منذ اللحظة الأولى، روحين لطختهما المعاناة، وجعلت تغرز في قلوبهما الموت المبكر.
مزيجٌ من الكآبة واليأس، والأزمات النفسية المتشابكة، بين ضعف الروح ومراوغة القدر.
ما ستؤول إليه الأحداث في روايتنا ستغير حياتهما للأبد، ولن ينسيا أبداً ذلك الحارث الجهنمي الذي سيقودهما إلى غير المتوقع !
- يارا درويش -
أوتارٌ ممزّقة
غلاف: دعاء الطيباني
رواية مشتركة صادرة عن مشروع مداد
مداد
لصقل المواهب الثقافية